الإمـام علـي
ضميـر الأمـة

الطبعة الأولى

١٤٤٣هـ-٢٠٢٢م

القطيف- المملكة العربية السعودية

أطيـــاف للنشـــر والتـوزيـــع

هاتف / فاكس : ٨٥٤٩٥٤٥ (١٣) ٩٦٦ +
القـــطيف - شـــارع القـــدس
ص.ب ٦١٢١٥ القطيـــف ٣١٩١١
المملـــكة العربيـــة السعوديـــة
E-mail: Atyaf.qatif@gmail.com

حسن موسى الصفار

الإمـام علـي
ضميـر الأمـة

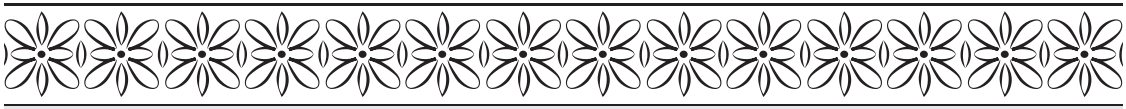

بسم الله الرحمن الرحيم

المحتويات

المحتويات ٧

المقدمة ٩

الفصل الأول: خصائص ومزايا ١٣

نفس رسول الله ١٥

أحاديث الخصائص ٣١

قيادة الأمة ٣٧

حديث الغدير ٤٧

الفصل الثاني: الضمير الحيّ ٥٥

الأحرص على وَحْدَةِ الأمة ٥٧

بناء الحكم الرشيد ٧٥

صبر بلا حدود ٨٣

الفصل الثالث: القائد الإنسان ٩٣

في إدارة الصراع ٩٥

تحدي إغراءات المنصب ١١٧

روح المبادرة ١٢٩

المقدمة

ما هو دور الضمير في حياة الإنسان؟

للضمير دور أساس في توجيه حركة الإنسان نحو الخير، وإبعاده عن مزالق الشر، فهو الذي يكشف ويميّز للإنسان مسلك الخير عن مسلك الشر، ويحفّزه نحو الخير، ويحذّره من مقاربة الشر.

وحين يتخذ الإنسان القرار الخطأ، مخالفاً ضميره، فإن الضمير لا يُسلم صاحبه، ولا يتخلى عنه، بل يظل ساعيًا لإنقاذه، يهزّه في أعماق نفسه بصوت النقد والتذكير، ويقرعه بسوط الملامة والتوبيخ، لإيصاله إلى حالة الشعور بالندم، والتفكير في التراجع عن الخطأ.

يرى عالم الاجتماع الفرنسي دور كايم، أنه كلما أعملنا الفكر لنعرف ما علينا أن نفعل كلمنا صوت من

داخلنا وقال: هذا واجبك. وإذا ما أخللنا بهذا الواجب، قام الصوت نفسه فكلمنا واحتج على ما فعلنا. إن هذا الصوت العميق فينا هو ضميرنا[1].

والضمير هو المرجعية الأخلاقية الأوثق لسلوك الإنسان، لأنه لا يكذب ولا يخدع ولا يتغير أبداً، وإلى ذلك يشير الحديث النبوي عنه ﷺ: «استَفْتِ قلبَك، البِرُّ ما اطمأنَّت إليه النفسُ، واطمأنَّ إليه القلبُ، والإثمُ ما حاك في القلبِ، وتردَّد في الصدرِ وإن أفتاك الناسُ وأفتَوْك»[2].

وهو الجهة التي يفترض أن تكون أكثر ضبطًا لتوجّهات الإنسان، فإذا عجز الضمير عن ضبطه، فلن تفلح أي جهة أخرى في ترشيد مساره، ورد عن الإمام محمد الباقر عليه السلام: «من لم يجعل الله له من نفسه واعظًا، فإن مواعظ الناس لن تغني عنه شيئًا»[3].

وحين يفشل الضمير في مهمته، ويتمادى الإنسان في مخالفته وخنقه، فيخبو ضوؤه، ويبحّ صوته، هنالك يكون مصير الإنسان إلى الشقاء والهلاك المحتوم.

وكما هو دور الضمير في حياة الإنسان تمييزاً وتحفيزاً وتحذيراً

(١) مجلة القافلة عدد نوفمبر ٢٠١٩م، ص٩٣.
(٢) صحيح الترغيب والترهيب للمنذري، محمد ناصر الدين الألباني، صحيح الترغيب، حديث ١٧٣٤
(٣) تحف العقول، ص٢٩٤.

وتصويباً، كذلك هو دور القائد المصلح في أمته ومجتمعه، إنه يدلّهم على طريق الخير والهدى، ويحفّزهم لارتياده، ويحذّرهم من طرق الشر والضلال، وينذرهم من عواقب السير فيها.

وإذا ما انزلق المجتمع في الطريق الخطأ، لضعف وعي، أو خور إرادة، أو اختطاف قوى مغرضة لقراره، فإن القائد المخلص لا ينكفئ على نفسه، ولا ينتقم من أمته، بل يبذل قصارى جهده لترشيد مسارها، وإعادتها إلى جادة الهدى والصواب، يسعى لإنقاذ ما يمكن إنقاذه، وإصلاح ما يمكن إصلاحه، مشفقاً على الناس، متوجعاً لمعاناتهم، متحملاً الغصص والآلام من خذلان المجتمع داخل قلبه.

وفي تاريخنا الإسلامي كان الإمام علي عليه السلام النموذج الأصدق والأجلى لدور الضمير الحي في الأمة الإسلامية بعد رسول الله صلى الله عليه وآله.

وصفحات هذا الكتاب في معظم فصوله، تسلّط الضوء على سيرة الإمام علي، من هذه الزاوية والمنظار. هي سيرة ملهمة لكل من يتصدى للإصلاح الاجتماعي، ليدرك خطورة ما يتطلع لتحقيقه، وليعزّز في نفسه قدرات المواجهة لتحديات مهمة الإصلاح والتغيير.

حسن موسى الصفار

١٤٤٣/٦/٢٧هـ

٢٠٢٢/١/٣٠م

الفصل الأول

خصائص ومزايا

نفس رسول الله

لا شك أن الاقتراب من أي عظيم من العظماء يكسب الإنسان قيمتين: قيمة ذاتية، وأخرى اعتبارية. فعلى المستوى الذاتي يستفيد الإنسان من علم وتجارب وأخلاق العظيم الذي يقترب منه، لهذا كانت صحبة الأخيار والعلماء أمراً محبذاً ومرغوباً فيه؛ لأن صحبة هؤلاء الصالحين تكسب الإنسان من صلاحهم وفضلهم.

أما من الناحية الاعتبارية فيكتسب القريبون من العظماء احترام وتقدير من حولهم، وذلك انبثاقًا من احترام الناس لذلك العظيم أو الزعيم.

لا ريب أن رسول الله ﷺ أعظم عظماء البشرية، وأفضل خلق الله، وبذلك يكون القرب منه ﷺ بحد ذاته قيمة وسببًا من أسباب الفضل. ذلك أن القريبين منه ﷺ

يفترض فيهم الإفادة والاكتساب من هديه وفضله، كما أن قربهم منه كفيل بخلق الحظوة والمكانة لهم بين الناس. لكن هذه الفضيلة لن تكتسب ما لم تكن لدى الإنسان الأهلية والاستعداد حتى يكتسب من فضيلة القرب من هذا العظيم.

إذ إن مجرد ملازمة بعض الناس لأيّ عالم من العلماء، فضلا عن أحد العظماء، دون أن يكون لديهم الاستعداد والاهتمام في التلقي والاكتساب، فإنه لن يجديهم هذا القرب نفعاً. كذلك الأمر بالنسبة لمن عاصر النبي الأكرم ﷺ، فليس من الحتمي اكتساب جميع معاصريه ﷺ من هديه وفضله، إلا بمقدار ما توفرت لديهم من الأهلية والرغبة في اكتساب المعرفة والفضائل. وقد أشارت الآيات الكريمة إلى هذا المعنى، من خلال تناول صنف من الناس ممن لم يستفيدوا مطلقا من وجود هذا النبي العظيم بينهم، لانعدام الصدق والإخلاص فيهم، قال تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾[سورة التوبة، الآية: ١٠١].

وقد عاش رأس المنافقين عبد الله بن أُبي مع رسول الله وكان يحضر المسجد ويسمع خطب رسول الله ﷺ، ويؤدي الصلاة معه، ويشارك في بعض الغزوات، لكن هذا القرب من النبي لم يستفد منه ابن أُبي شيئا، حيث اشتهر بالنفاق وانعدام الصدق والإخلاص.

لقد أحصى المؤرخون أن من كانوا حول رسول الله ﷺ ورأوه

وسمعوا حديثه، يزيد عددهم على مئة ألف من الرجال والنساء، جميعهم يطلق عليهم بالعنوان العام اسم الأصحاب أو الصحابة، فهل كانت استفادة هؤلاء من وجودهم قرب رسول الله ﷺ بمستوى واحد؟ وهل كانوا جميعًا بدرجة واحدة من الصدق والإخلاص؟

إن هناك إجماعاً لدى الأمة على أن أصل القرب من الرسول ﷺ يشكّل قيمة وفضيلة، حتى مع إقرار القرآن الكريم بوجود بعض المنافقين حول النبي ﷺ. وقد اتفق المسلمون على فضل ومكانة أهل بيت رسول الله ﷺ، ليس لأنهم ذرية النبي فحسب، ولكن لأنهم كانوا الأقرب منه ﷺ، فنهلوا واكتسبوا من علمه ﷺ، ولأنهم أخلصوا وصدقوا واستقاموا، لهذا وردت النصوص بفضلهم، وأمر رسول الله ﷺ بمحبتهم، كما فرض القرآن مودّتهم، يقول تعالى: ﴿قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾[سورة الشورى، الآية، ٢٣].

فضل الصحابة

كذلك الأمر بالنسبة لصحابة رسول الله وزوجاته ﷺ، فقد اتفق المسلمون على أن الأصل أن لهم فضل الصحبة، وأن لزوجات النبي حرمة باعتبارهن أمهات المؤمنين بنص القرآن الكريم ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾[سورة الأحزاب: الآية: ٦].

فصحبة رسول الله ﷺ فيها فضل، على اختلاف بين المسلمين، مداره الجدلية حول مطلق عدالة الصحابة، وهل أن كل واحد منهم

عدل، وكلامه حجة يؤخذ به؟

الشيعة أتباع نهج أهل البيت لا يرون ثبوت العدالة لجميع الصحابة، إنما يعتقدون بأن صحبة النبي الأكرم مشروطة بالصدق والإخلاص والاستقامة، وأن ذلك ما يفترض أن يكون الأصل في الصحابة إلا إذا ثبت العكس، عندها ينتفي ذلك الفضل، وتبعًا لذلك لا يكون كل صحابي عدلاً، ولا يعد كلام كل واحد منهم حجة، بينما يرى جمهور أهل السنة عدالة الصحابة بشكل عام.

الشيعة يعتقدون بأن أصل صحبة النبي الأكرم فيه فضل، وعليه لا صحة للاتهامات التي تطال شيعة أهل البيت من أنهم يقفون بالضد من الصحابة، وأنهم يبغضونهم ويسبونهم. ذلك لأن شيعة أهل البيت يقرؤون القرآن الكريم، ويقرؤون قوله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾[سورة الفتح: الآية٢٩]، كما يقرأ الشيعة كلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام في نهج البلاغة وهو يمتدح جهاد وإخلاص من كانوا حول رسول الله صلى الله عليه وآله، فيقول في إحدى خطبه: «لَقَدْ رَأَيْتُ أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله فَمَا أَرَى أَحَداً يُشْبِهُهُمْ مِنْكُمْ لَقَدْ كَانُوا يُصْبِحُونَ شُعْثاً غُبْراً وقَدْ بَاتُوا سُجَّداً وقِيَاماً يُرَاوِحُونَ بَيْنَ جِبَاهِهِمْ وخُدُودِهِمْ ويَقِفُونَ عَلَى مِثْلِ الْجَمْرِ مِنْ ذِكْرِ مَعَادِهِمْ»[1].

(١) نهج البلاغة، خطبة ٩٧، تحقيق الدكتور صبحي الصالح، ص١٤٣.

وفي السياق نفسه، ورد في الصحيفة السجادية في الدعاء الرابع من أدعية الإمام زين العابدين عليه السلام الذي خصصه للصلاة على أصحاب الرسل وأتباعهم، وخصّ بإحدى فقراته أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله بقوله: «اللَّهُمَّ وأَصْحَابُ مُحَمَّدٍ خَاصَّةً الَّذِينَ أَحْسَنُوا الصَّحَابَةَ والَّذِينَ أَبْلَوُا الْبَلَاءَ الْحَسَنَ فِي نَصْرِهِ، وكَانَفُوهُ، وأَسْرَعُوا إِلَى وِفَادَتِهِ، وسَابَقُوا إِلَى دَعْوَتِهِ، واسْتَجَابُوا لَهُ حَيْثُ أَسْمَعَهُمْ حُجَّةَ رِسَالَاتِهِ. وفَارَقُوا الْأَزْوَاجَ والْأَوْلَادَ فِي إِظْهَارِ كَلِمَتِهِ، وقَاتَلُوا الْآبَاءَ والْأَبْنَاءَ فِي تَثْبِيتِ نُبُوَّتِهِ، وانْتَصَرُوا بِهِ. ومَنْ كَانُوا مُنْطَوِينَ عَلَى مَحَبَّتِهِ يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ فِي مَوَدَّتِهِ. والَّذِينَ هَجَرَتْهُمْ الْعَشَائِرُ إِذْ تَعَلَّقُوا بِعُرْوَتِهِ، وانْتَفَتْ مِنْهُمُ الْقَرَابَاتُ إِذْ سَكَنُوا فِي ظِلِّ قَرَابَتِهِ»[1]. لذلك لا صحة للمزاعم التي يروجها البعض من أن الشيعة يحترمون أربعة من الصحابة فقط.

حاكمية القيم

إن مجمل الرؤية الشيعية تجاه موضوع الصحابة تتلخص في حاكمية القيم على الجميع، وعليها يقوم معيار الصواب والخطأ في أقوال وأفعال جميع الناس، سواء كانوا صحابة أو غيرهم، فهم لا يرون أن جميع الصحابة عدول، وأن كل فرد منهم كلامه حجة، بل يقيسون أعمال كل واحد منهم بمعيار القيم. فالشيعة ليسوا ضد الصحابة، بل يحبونهم ويوقرونهم، ويكفي أن نقول أن من الصحابة من قاتل إلى

(١) صحيفة زين العابدين، دعاء رقم ٤ (دعاؤه فِي الصَّلاَةِ عَلَى أَتْبَاعِ الرُّسُلِ ومُصَدِّقِيهِمْ)، ص ٤٦.

جانب علي عليه السلام في حرب صفين، ومنهم أكثر من سبعين بدريًّا، وثمان مئة من أصحاب بيعة الرضوان، وأربعمائة من سائر صحابة النبي صلى الله عليه وآله. وجاء في مروج الذهب أن عدد الصحابة الذين كانوا في صف الإمام علي عليه السلام في صفين ألفان وثمان مئة صحابي[1]، فيما لم يتجاوز عدد الصحابة الذي كانوا مع معاوية بن أبي سفيان أصابع اليد، فكيف يصح القول بأن الشيعة لا يقبلون الصحابة، ولا يحبونهم، ولا يحترمونهم؟.

إن من إحدى المشاكل التي ابتليت بها الأمة، هي النظر إلى الشخصيات وإلى العظماء من زاوية طائفية ضيقة. فهناك من لا زال يحجم عن الحديث عن فضائل أهل البيت عليهم السلام متوهمًا أن مثل هذا الحديث هو انتصار للشيعة، وفي المقابل هناك من يحجم عن الحديث عن الصحابة لأن في ذلك انتصاراً لأهل السنة من وجهة نظره. وينطبق الأمر ذاته على الدائرة الأوسع، فمع إيمان المسلمين بجميع الأنبياء وعدم التفريق بين أحد منهم، إلا أننا نواجه النظرة الضيقة ذاتها، فلا تجد الاحتفاء بنبي الله عيسى عليه السلام أو نبي الله موسى عليه السلام بالقدر المطلوب، وكأن في الاحتفاء بهما محاباة لليهود والمسيحيين.

الأقرب إلى رسول الله

إذا كان القرب من رسول الله صلى الله عليه وآله يُمثّل قيمةً وشرفاً عظيماً، فعلينا أن نتساءل: من كان الأقرب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله؟ لأنه يكون الأوفر حظّاً،

(١) علي بن الحسين بن علي المسعودي، مروج الذهب، ج٢، الطبعة الثانية ١٤٠٤هـ، (قم المقدسة: دار الهجرة)، ص٢٥٢.

والأكثر نصيباً، من هذه القيمة والشرف. وحين نتأمل ونتصفّح تاريخ رسول الله ﷺ فلن نجد أحداً أقرب إليه من علي بن أبي طالب عليه السلام، فقد نال من ذلك ما لا يوازيه فيه أحد من الصحابة. ونذكر هنا جملةً من الخصائص التي اختص بها الإمام علي عليه السلام دون سواه في مجال صحبة رسول الله ﷺ والقرب منه:

أولاً: عليٌّ نفس الرسول

يقول تعالى: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾[سورة آل عمران، الآية: ٦١].

وقد ورد عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام أنه قال: «أكبر فضيلة لعلي في القرآن الكريم آية المباهلة»[1]، لأن الآية الكريمة تُنزل الإمام علي عليه السلام بمنزلة النفس من رسول الله ﷺ، وقد ترجم ذلك رسول الله ﷺ عمليّاً حين خرج لمباهلة نصارى نجران، ففي السيرة النبوية: أن رسول الله ﷺ أقبل إلى نصارى نجران ليباهلهم، وكان معه عليٌّ، وفاطمة، والحسن، والحسين عليهم السلام، وذكر الآلوسي، وهو من علماء أهل السنة، في تفسيره (روح المعاني): «أن أسقف نجران لما رأى رسول ﷺ مقبلاً ومعه عليٌّ وفاطمة والحسنان عليهم السلام قال : يا معشر النصارى، إني لأرى وجوهاً لو سألوا الله تعالى أن يزيل جبلاً من مكانه لأزاله فلا

(١) بحار الأنوار، ج١٠٩، ص٤.

تباهلوا وتهلكوا»[1]، وقال: «وفي القصة أوضح دليل على نبوته ﷺ وإلا لما امتنعوا عن مباهلته، ودلالتها على فضل آل رسول الله ﷺ مما لا يمتري فيها مؤمن»[2].

وقد اتفق المفسّرون أن ﴿أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ﴾ تعني: الحسن والحسين عليهما السلام، ﴿وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ﴾ تعني: فاطمة الزهراء عليها السلام، ﴿وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ﴾ تعني: علي بن أبي طالب عليه السلام، فهو نفس رسول الله.

فإذا كان القرآن الكريم يصف عليًّا بأنه نفس رسول الله ﷺ، فمن الطبيعي أن تكون نفس الرجل أفضل من أصحابه، وجميع من حوله.

ثانياً: عليٌّ نشأ في حجر الرسول

من ناحيةٍ أخرى، فإننا إذا قرأنا التاريخ نرى عمق العلاقة التي كانت بين رسول الله ﷺ والإمام علي عليه السلام. فالرسول ﷺ نشأ في بيت عمه أبي طالب عليه السلام، برعايته ورعاية فاطمة بنت أسد عليها السلام، وهما والدا الإمام علي عليه السلام. وشاءت حكمة الله تعالى، أنه بعد ولادة الإمام علي عليه السلام، أصبح الوضع الاقتصادي لأبي طالب صعباً، ورد في المستدرك على الصحيحين: «كَانَ مِنْ نِعَمِ اللَّهِ عَلَى عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَا صَنَعَ اللَّهُ لَهُ وَأَرَادَهُ بِهِ مِنَ الْخَيْرِ أَنَّ قُرَيْشًا أَصَابَتْهُمْ أَزمَةٌ شَدِيدَةٌ، وَكَانَ أَبُو طَالِبٍ فِي عِيَالٍ كَثِيرٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِعَمِّهِ

(١) شهاب الدين السيد محمود الآلوسي، روح المعاني، ج٣، الطبعة الرابعة ١٩٨٥م، (بيروت: دار إحياء التراث العربي)، ص١٨٨.

(٢) المصدر نفسه، ص١٨٩.

الْعَبَّاسِ، وَكَانَ مِنْ أَيْسَرِ بَنِي هَاشِمٍ: «يَا أَبَا الْفَضْلِ، إِنَّ أَخَاكَ أَبَا طَالِبٍ كَثِيرُ الْعِيَالِ، وَقَدْ أَصَابَ النَّاسَ مَا تَرَى مِنْ هَذِهِ الْأَزْمَةِ، فَانْطَلِقْ بِنَا إِلَيْهِ نُخَفِّفْ عَنْهُ مِنْ عِيَالِهِ؛ آخذُ مِنْ بَنِيهِ رَجُلًا، وَتَأْخُذُ أَنْتَ رَجُلًا فَنَكْفُلُهُمَا عَنْهُ» فَقَالَ الْعَبَّاسُ: نَعَمْ، فَانْطَلَقَا حَتَّى أَتَيَا أَبَا طَالِبٍ، فَقَالَا: إِنَّا نُرِيدُ أَنْ نُخَفِّفَ عَنْكَ مِنْ عِيَالِكَ حَتَّى تَنْكَشِفَ عَنِ النَّاسِ مَا هُمْ فِيهِ، فَقَالَ لَهُمَا أَبُو طَالِبٍ: إِذَا تَرَكْتُمَا لِي عَقِيلًا فَاصْنَعَا مَا شِئْتُمَا، فَأَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلِيًّا فَضَمَّهُ إِلَيْهِ، وَأَخَذَ الْعَبَّاسُ جَعْفَرًا فَضَمَّهُ إِلَيْهِ، فَلَمْ يَزَلْ عَلِيٌّ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى بَعَثَهُ اللَّهُ نَبِيًّا فَاتَّبَعَهُ وَصَدَّقَهُ وَأَخَذَ الْعَبَّاسُ جَعْفَرًا، وَلَمْ يَزَلْ جَعْفَرٌ مَعَ الْعَبَّاسِ حَتَّى أَسْلَمَ، وَاسْتَغْنَى عَنْهُ»[1]، وقد أشار لهذا الأمر في إحدى خطبه، يقول عليه السلام: «وقَدْ عَلِمْتُمْ مَوْضِعِي مِنْ رَسُولِ اللَّه ﷺ بِالْقَرَابَةِ الْقَرِيبَةِ والْمَنْزِلَةِ الْخَصِيصَةِ وَضَعَنِي فِي حِجْرِهِ وأَنَا وَلَدٌ يَضُمُّنِي إِلَى صَدْرِهِ ويَكْنُفُنِي فِي فِرَاشِهِ ويُمِسُّنِي جَسَدَهُ ويُشِمُّنِي عَرْفَهُ وكَانَ يَمْضَغُ الشَّيْءَ ثُمَّ يُلْقِمُنِيهِ ومَا وَجَدَ لِي كَذْبَةً فِي قَوْلٍ ولا خَطْلَةً فِي فِعْلٍ»[2]، وورد عنه عليه السلام أنه قال: « اِسْتَوْهَبَنِي مِنْ أَبِي فِي صِبَايَ، فَكُنْتُ أَكِيلَهُ وَشَرِيبَهُ وَمُؤْنِسَهُ وَمُحَدَّثَهُ»[3]، وقال عليه السلام: « كُنتُ في أيّامِ رَسولِ اللّه ﷺ كَجُزءٍ

(١) المستدرك على الصحيحين، ج٣، الطبعة الأولى ١٤١١هـ، (بيروت: دار الكتب العلمية)، ص٦٦٦، حديث٦٤٦٣.
(٢) نهج البلاغة، خطبة ١٩٢، ص٣٠٠.
(٣) الشيخ الصدوق، الخصال، الطبعة الأولى ١٤٢٩هـ، (بيروت: دار المرتضى)، ص٥٧١.

مِن رَسولِ الله»[1].

ثالثاً: عليٌّ زوج البتول

وحينما بلغت فاطمة الزهراء عليها السلام مبالغ النساء، جاء كبار الصحابة لخطبتها، وينقل لنا التاريخ أن أبا بكر، وعمر بن الخطاب، وعدداً من الصحابة قد خطبوا الزهراء عليها السلام، لكن رسول الله صلى الله عليه وآله اعتذر إليهم. وحينما أقبل الإمام علي عليه السلام لرسول الله صلى الله عليه وآله خاطباً الزهراء عليها السلام جاء الأمر الإلهي لرسول الله صلى الله عليه وآله: بتزويجها له، وقد جاء في سنن النسائي عن بريدة: (خَطَبَ أبو بَكرٍ وعُمَرُ فاطِمَةَ، فَقالَ رَسولُ الله صلى الله عليه وآله: «إنَّها صَغيرَةٌ». فَخَطَبَها عَلِيٌّ، فَزَوَّجَها مِنهُ)[2].

وجاء في مصادر أخرى عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «إِنَّ الله أَمَرَنِي أَنْ أُزَوِّجَ فَاطِمَةَ مِنْ عَلِيٍّ فَفَعَلْتُ»[3]، وهذه من الخصائص الفريدة لعليٍّ عليه السلام.

رابعاً: عليٌّ أخو الرسول

وينقل لنا التاريخ مفصّلاً عن عمق العلاقة التي جمعت بين رسول الله صلى الله عليه وآله وعلي عليه السلام، فحين جاء صلى الله عليه وآله إلى المدينة آخى بين أصحابه، من المهاجرين والأنصار، فقال عليٌّ عليه السلام: يا رسول الله إنك قد آخيت بين

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج٢٠، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ، (بيروت: دار الجيل)، ص٢٢٦.

(٢) محمد ناصر الدين الألباني، صحيح النسائي، حديث٣٢٢١.

(٣) المعجم الكبير، ومن مناقب فاطمة، ج١٠، ص١٥٦، حديث١٠٣٠٥

أصحابك فمن يكون أخي؟ فقال رسول الله ﷺ: أما ترضى يا علي أن أكون أخاك؟ فقال علي: بلى، فقال رسول الله ﷺ: «أنت أخي في الدنيا والآخرة»[1]، وهذه ميزةٌ أخرى تُضاف لمناقب علي بن أبي طالب عليه السلام.

وقد استمرت العلاقة الوثيقة بين رسول الله ﷺ وعلي عليه السلام إلى آخر لحظة من حياة الرسول الكريم، يقول الإمام علي عليه السلام: «ولَقَدْ قُبِضَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وإِنَّ رَأْسَهُ لَعَلَى صَدْرِي ولَقَدْ سَالَتْ نَفْسُهُ فِي كَفِّي فَأَمْرَرْتُهَا عَلَى وَجْهِي ولَقَدْ وُلِّيتُ غُسْلَهُ ﷺ والْمَلائِكَةُ أَعْوَانِي...، فَمَنْ ذَا أَحَقُّ بِهِ مِنِّي حَيّاً ومَيِّتاً»[2].

خصائص الإمام

فهل هناك أحدٌ أولى برسول الله وأقرب إليه من الإمام علي؟! الذي تميّزت علاقته به، حيث لم يحظَ بمثلها أحدٌ من ذوي القربى ولا من الصحابة، فقد خصّ رسول الله ﷺ الإمام عليًّا عليه السلام بلقاءٍ خاص يومياً، كما ذكر النسائي ما روي عن الإمام علي عليه السلام في ذلك: «كَانَ لِي مِنْ رَسُولِ اَللَّهِ ﷺ مَدْخَلاَنِ مَدْخَلٌ بِاللَّيْلِ وَمَدْخَلٌ بِالنَّهَارِ»[3]، وقال عليه السلام: «كُنْتُ إِذَا سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَعْطَانِي وَإِذَا سَكَتُّ ابْتَدَأَنِي»[4].

(١) المستدرك على الصحيحين، ج٣، ص١٦، حديث٤٢٨٩.
(٢) نهج البلاغة، خطبة ١٩٧، ص٣١١.
(٣) أحمد بن شعيب النسائي، خصائص النسائي، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ، ص٢٢٠، حديث ١١٧.
(٤) سنن الترمذي، ج٤، الطبعة الأولى ١٤٠٢١هـ، (بيروت: دار الكتب العلمية)، ص٤٧٦، حديث ٣٧٢٢.

لذا فإن عدداً من علماء المسلمين، من السنة والشيعة، كتبوا حول خصائص الإمام علي عليه السلام، ومنهم: المحدث النسائي، صاحب السنن، الذي ألّف كتاباً بعنوان خصائص أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، وكذلك الطبري له كتابٌ حول خصائصه، وغيرهما.

وجاء في المستدرك على الصحيحين «عن جميح بن عمير قال: دخلتُ معَ عمَّتي على عائشةَ رضي الله عنها فسُئلَت أيُّ النَّاسِ كانَ أحبَّ إلى رسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليْهِ وسلَّمَ قالت: فاطمةُ، قيلَ: فمنَ الرِّجالِ قالت: زوجُها إن كانَ ما علِمتُه صوَّامًا قوَّامًا»[1].

وبالعودة لحديث المباهلة، وهو الحديث الثابت والمتفق عليه، والذي لا يماري في صحته أحد، ورد في صحيح مسلم، في باب فضائل علي بن أبي طالب، عن سعد بن أبي وقاص، أن معاوية بن أبي سفيان عاتبه بالقول: يا سعد، ما منعك أن تسب أبا التراب؟ فقال سعد: ما ذكرت ثلاثاً قالهن له رسول الله صلى الله عليه وآله، فلن أسبه أبدًا، لو أن لي واحدة منهن كان خيراً لي من حمر النعم. الأولى حين خلفه رسول الله صلى الله عليه وآله في المدينة في بعض مغازيه ـ غزوة تبوك ـ فقال علي عليه السلام: تخلفني مع النساء والصبيان؟ فقال له صلى الله عليه وآله: «أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا إنه لا نبوة بعدي»، والثانية في خيبر حينما قال صلى الله عليه وآله: «لأعطين الراية رجلاً يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله»، فتطاولت أعناقنا، فدعا عليًّا فجاء وهو أرمد، فبصق من فيه،

(١) المستدرك على الصحيحين، ج٣، ص١٧١، حديث٤٧٤٤.

فأصابت عينه، وأعطاه الراية، والثالثة لما نزلت قوله تعالى: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ﴾ خرج رسول الله ﷺ ومعه علي وفاطمة والحسنان[1]، وقد صحح الحديث ابن تيمية في منهاج السنة بقوله: «أما أخذه عليًّا والحسن والحسين في المباهلة فحديث صحيح رواه مسلم»[2].

فهذا الحديث الصحيح يثبت دون شك أن عليًّا عليه السلام هو الأقرب إلى رسول الله ﷺ، وهو أكثر من استفاد من علمه وهديه وأخلاقه، لذلك عدّه الرسول ﷺ كنفسه، ناهيك عن الأحاديث الكثيرة الأخرى، ومنها قوله ﷺ: «عَلِيٌّ مِنِّي، وَأَنَا مِنْ عَلِيٍّ»[3]، وفي صحيح البخاري عن رسول الله ﷺ أنه قال لِعَلِيٍّ: «أَنْتَ مِنِّي وأنا مِنْكَ»[4]، فعلاقة النبي بعلي كانت وثيقة، وعلى مستوى من العمق لا تجاريها علاقة أخرى بين النبي وأي أحدٍ آخر.

عليٌّ حاجة العصر

حينما نتحدث عن علي بن أبي طالب عليه السلام، ونتمسك بولايته، فهذا يجب أن يعبّر عن الالتزام بمنهجه الذي نحتاج إليه في كلّ

(١) صحيح مسلم، حديث رقم٣٢.
(٢) أحمد بن تيمية الحراني، منهاج السنة النبوية، ج٤، الطبعة الأولى ١٣٢٢هـ (مصر: المطبعة الكبرى الأميرية)، ص٣٤.
(٣) كنز العمال، ج١١، ص٦٠٣.
(٤) محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، ج٣، الطبعة الأولى ١٩٩٩م، (بيروت: دار الكتب العلمية)، ص٨٣، حديث٤٢٥١.

عصر، وخاصّةً في هذا العصر. فالإمام علي عليه السلام ليس مجرد شخصٍ في التاريخ، وليست المسألة مجرد إعجابٍ بشخصيته؛ وإنما لحاجة البشرية اليوم لفكره وهديه وسيرته، فذلك يمثل المطلب الأساس لتتجاوز البشرية ما تعيشه من ظلام الجهل والاستبداد والتخلف.

فأهمّ ما تحتاجه البشرية اليوم، هو العدل الغائب عن هذا العالم، وأهم خطرٍ تعاني منه البشرية هو الظلم والجور، وعلي بن أبي طالب عليه السلام سطّر في سيرته وحياته أروع نموذج للعدل. وحين تحدث عنه الأديب المسيحي جورج جرداق، وألف كتابه عن سيرته في خمسة مجلدات، أطلق عليه عنوان: الإمام علي عليه السلام صوت العدالة الإنسانية.

وعندما نتأمل في فكر الإمام علي عليه السلام نجده يركز على العدل، كما أن سيرته قامت على تشييد العدل، ومقاومة الظلم، يقول الإمام علي عليه السلام: «اَلْعَدْلُ أَسَاسٌ بِهِ قِوَامُ اَلْعَالَمِ»[1]، ويقول عليه السلام: «اَلْعَدْلُ حَيَاةٌ»[2]، ويقول عليه السلام: «بِالْعَدْلِ تَتَضَاعَفُ اَلْبَرَكَاتُ»[3]، ويقول عليه السلام : «مَا عُمِرَتِ اَلْبِلاَدُ بِمِثْلِ اَلْعَدْلِ»[4]. فما أحوج البشرية لهذا الفكر، وما أحوجها لهذه السيرة.

(١) بحار الأنوار، ج٧٥، ص٨٣.
(٢) غرر الحكم ودرر الكلم، ج١، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ، (بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات)، ص٢٠، حكمة ٣٠٧.
(٣) غرر الحكم ودرر الكلم، ص٢٩١، حكمة ٣٣.
(٤) حسين النوري الطبرسي، مستدرك الوسائل ج١١، الطبعة الثالثة ١٤١١هـ، (بيروت: مؤسسة آل البيت لإحياء التراث)، ص٣٢٠.

ومع الأسف، فإن سيرة الإمام علي عليه السلام غائبة عن البشرية اليوم، ولا شكّ أن أتباع علي عليه السلام مقصّرون في ذلك؛ لأنهم لم يكشفوا حقيقة شخصيته عليه السلام، ولم يعرضوها للعالم في صورتها المشرقة، فهو لا نظير له في تاريخ البشرية بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، يقول عليه السلام: «وَ اللَّهِ لَأَنْ أَبِيتَ عَلَى حَسَكِ السَّعْدَانِ مُسَهَّداً أَوْ أُجَرَّ فِي الأَغْلالِ مُصَفَّداً أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَلْقَى اللَّهَ ورَسُولَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ظَالِماً لِبَعْضِ الْعِبَادِ وغَاصِباً لِشَيْءٍ مِنَ الْحُطَامِ»[1] ويقول في مورد آخر: «واللَّهِ لَوْ أُعْطِيتُ الأَقَالِيمَ السَّبْعَةَ بِمَا تَحْتَ أَفْلاكِهَا عَلَى أَنْ أَعْصِيَ اللَّهَ فِي نَمْلَةٍ أَسْلُبُهَا جُلْبَ شَعِيرَةٍ مَا فَعَلْتُهُ»[2].

صوت العدالة

هذا الرجل عاش للعدل، ورفض كل ما يخالف العدل، ولو كان في ذلك ذهاب أهمّ المكاسب الدنيوية، والمناصب السلطوية. فحينما آلت إليه الخلافة والحكم ساوى بين الناس في العطاء، فحذّره البعض من أن هذه المساواة قد تفقده الكثير من الأتباع والأعوان، فالشخصيات المرموقة إن لم يُميّزوا لا يقفون إلى جانبه، لكن عليًّا عليه السلام رفض ذلك، وقال في جوابه لهؤلاء: «أَتَأْمُرُونِّي أَنْ أَطْلُبَ النَّصْرَ بِالْجَوْرِ فِيمَنْ وُلِّيتُ عَلَيْهِ؟ واللَّهِ لا أَطُورُ بِهِ مَا سَمَرَ سَمِيرٌ، ومَا أَمَّ نَجْمٌ فِي السَّمَاءِ نَجْماً، لَوْ

(١) نهج البلاغة، خطبة ٢٢٤، ص٣٤٦.
(٢) المصدر نفسه.

كَانَ الْمَالُ لِي لَسَوَّيْتُ بَيْنَهُمْ، فَكَيْفَ وإِنَّمَا الْمَالُ مَالُ الله؟»[1].

ولهذا عاش الناس في ظل علي بن أبي طالب عليه السلام وهم ينعمون بالعدل، والرفاهية، وقد خاطب الإمام علي عليه السلام أهل الكوفة أواخر حياته بقوله: «ما أصبح أحد في الكوفة إلا ناعماً، وإن أدناهم منزلة لمن يأكل من البر، ويسكن في الظل، ويشرب من ماء الفرات»[2]؛ يأكل من البر: أي لديه ما يكفيه من الطعام، ويسكن في الظل: بمعنى أن عنده سكناً يأوي إليه.

وقد كان الإمام علي عليه السلام يتأوه ويتألم لاحتمال أن هناك جائعاً في مناطق بعيدة عن العاصمة، يقول عليه السلام: «ولَوْ شِئْتُ لاهْتَدَيْتُ الطَّرِيقَ إِلَى مُصَفَّى هَذَا الْعَسَلِ ولُبَابِ هَذَا الْقَمْحِ ونَسَائِجِ هَذَا الْقَزِّ ولَكِنْ هَيْهَاتَ أَنْ يَغْلِبَنِي هَوَايَ ويَقُودَنِي جَشَعِي إِلَى تَخَيُّرِ الأَطْعِمَةِ ولَعَلَّ بِالْحِجَازِ أَوْ الْيَمَامَةِ مَنْ لا طَمَعَ لَهُ فِي الْقُرْصِ ولا عَهْدَ لَهُ بِالشِّبَعِ أَوْ أَبِيتَ مِبْطَاناً وحَوْلِي بُطُونٌ غَرْثَى وأَكْبَادٌ حَرَّى»[3].

فما أحوج البشرية إلى هذا النهج، وما أحوج المسلمين إلى سيرة الإمام علي عليه السلام.

(١) نهج البلاغة، خطبة ١٢٦
(٢) المستدرك على الصحيحين، ج٢، ص٤٤٥.
(٣) نهج البلاغة، كتاب ٤٥، ص٤١٧.

أحاديث الخصائص

جاء بسند صحيح عن أم المؤمنين أم سلمة أنها قالت: أشهد أني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ أَحَبَّ عَلِيًّا فَقَدْ أَحَبَّنِي، وَمَنْ أَحَبَّنِي فَقَدْ أَحَبَّ الله عَزَّ وَجَلَّ، وَمَنْ أَبْغَضَ عَلِيًّا فَقَدْ أَبْغَضَ الله عَزَّ وَجَلَّ»(١).

من الطبيعي أن يهتم المسلمون بمعرفة تقويم رسول الله ﷺ للأشخاص الذين كانوا حوله. لهذا اهتموا بجمع وحفظ الأحاديث التي جاءت في حقّ الصحابة، أو في حقّ كل صحابي على حدة، وتبدو أهمية الموضوع من خلال النقاط التالية:

الأولى: اعتقاد المسلمين بصدق رسول الله ﷺ

---

(١) محمد بن ناصر الألباني، سلسلة الأحاديث الصحيحة، ج٣، ص٢٨٧، حديث ١٢٩٩.

وعصمته وموضوعيته. فحينما يقوّم شخصًا من الأشخاص الذين حوله، لا بُدّ وأن يكون كلامه صحيحًا ودقيقًا، فهو معصوم لا ينطلق في تقويمه للأشخاص من وحي الأحاسيس والانفعالات، أو الدوافع النَسبية والقبلية.

الثانية: وجوب اتّباع ما يقوله النبي ﷺ حتى فيما يخص كلامه في تقويم الأشخاص، سيما إذا تضمن حديثه أمرًا أو نهيًا؛ لأن أمر الرسول ﷺ نافذ على المسلمين كما يقول تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾[سورة الحشر، الآية: ٧]، فحينما يتحدث الرسول ﷺ عن أحد من أصحابه بشيء، ويتضمن ذلك الحديث أمرًا عمليًّا متوجهًا للمسلمين، فإنهم لا بُدّ أن يقبلوا ذلك الأمر.

الثالثة: تترتب على هذه النصوص درجة العلاقة والموقف من ذلك الشخص، خاصة وأنه من الواضح أن من كانوا حول رسول الله ﷺ حصل بينهم تفاوت في الآراء والمواقف بعد وفاة رسول الله ﷺ، وهذا معروف تاريخيًّا. نحن كمسلمين كيف نتعامل مع هذه الشخصيات؟ ما موقفنا منها؟ ما درجة ارتباطنا بها؟ النصوص هي التي تبين لنا ذلك، لهذا كان الاهتمام بهذه النصوص عند علماء الأمة وجمهورها.

امتياز أحاديث فضائل عليّ

لا شك أن الروايات الواردة حول الأصحاب والأقوام كثيرة في كتب الأحاديث، وقد خصص جامعوها فصولًا تحت عنوان الفضائل أو الخصائص، كما اهتم علماء الحديث بدراسة إسنادها لمعرفة مدى صحتها، وواضح جدًّا أن هناك أحاديث ونصوصًا وردت عن رسول الله ﷺ في حقّ عليّ بن أبي طالب عليه السلام خاصة. وهي نصوص تمتاز عن بقية النصوص التي وردت في حق صحابة آخرين، أو في حق الصحابة بشكل عام.

هذه الخصوصية يمكن الحديث عنها في النقاط التالية:

الأولى: الإجماع على صحة عدد كبير من تلك النصوص

ما ورد من نصوص حول بعض الصحابة قد يختلف حولها، فقد تثبت عند السنة ولا تثبت عند الشيعة، أما النصوص التي وردت في فضل عليّ عليه السلام فمعظمها مجمع عليه بين السنة والشيعة. هذه الأحاديث المتعددة التي أجمع عليّها السنة والشيعة هي ميزة لعليّ عليه السلام.

الثانية: كثرة الأحاديث

فإن المراجعَ لكتب الأحاديث والروايات، يدرك أن الأحاديث التي وردت عن رسول الله ﷺ في حق عليّ بن أبي طالب عليه السلام لا توازيها أيّ كمية أخرى في حقّ أيّ صحابي آخر. وهذا ما تحدث عنه علماء المسلمين. فقد جاء عن الإمام أحمد بن حنبل أنه قال: «مَا جَاءَ

لِأَحَدٍ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْفَضَائِلِ مَا جَاءَ لِعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ»[1]. وقد أفرد الإمام أحمد كتابًا حول فضائل الإمام عليّ، كما ألّف الإمام النسائي كتابًا تحت عنوان: خصائص أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام.

الثالثة: المضمون النوعي المتميز

ذلك أن الأحاديث في عليّ عليه السلام تختلف عن الأحاديث الواردة في غيره من الصحابة، بغض النظر عن صحة أو عدم صحة سندها. الأحاديث الثابتة المجمع عليّها من قبل المسلمين في حقّ عليّ عليه السلام تحمل لغة لم يرد مثلها من قبل رسول الله ﷺ في حقّ أيّ شخص آخر.

فإلى جانب حديث الولاية والوراثة والإنذار والمنزلة، هناك أحاديث ذات مضمون متميّز في الفضائل اختص به علي عليه السلام، ومنها أن النبي ﷺ يربط بين الموقف من شخص عليّ وبين الإيمان والنفاق، فيعتبر أن الانشداد القلبي والارتباط به إيمان، وأنّ بغضه نفاق، وفي بعض الأحاديث أن بغضه كفر، وأن بغضه يترتب عليّه بغض الله سبحانه وتعالى.

لم يرد حديث صحيح في أحدٍ من الصحابة يحمل هذا المضمون. إخواننا أهل السنة نقلوا حديثًا عن الأنصار وأن: «حُبُّ الأَنْصَارِ إِيمَانٌ،

(١) الحاكم النيسابوري، المستدرك على الصحيحين، ج٣، ص١١٦، حديث ١٧٠.

وَبُغْضُهُمْ نِفَاقٌ»[1]، وهذا ينطبق على الأنصار من حيث المجموع، لكن تخصيص هذا المضمون لشخص من الصحابة لم يرد إلا في حقّ عليّ عليه السلام. كالحديث المروي عن أم سلمة ـ والحديث سنده صحيح ـ تقول: أشهد أني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «من أحبّ عليًّا فقد أحبني، ومن أحبني فقد أحبّ الله. ومن أبغض عليًّا فقد أبغضني، ومن أبغضني فقد أبغض الله». وقد ذكره الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة.

وكذلك الحديث الذي نقله الحاكم في المستدرك، أن رجلًا قال لسلمان الفارسي: ما أشدّ حبّك لعليّ! قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «مَنْ أَحَبَّ عَلِيًّا فَقَدْ أَحَبَّنِي، وَمَنْ أَبْغَضَ عَلِيًّا فَقَدْ أَبْغَضَنِي»[2].

وأيضًا ما أخرجه مسلم في صحيحة في (باب الدليل على أن حب الأنصار وعلي من الإيمان وعلاماته)، عن أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام أنه قال: «وَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ وَبَرَأَ النَّسَمَةَ، إِنَّهُ لَعَهْدُ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ صلى الله عليه وآله إِلَيَّ أَنْ لَا يُحِبَّنِي إِلَّا مُؤْمِنٌ، وَلَا يُبْغِضَنِي إِلَّا مُنَافِقٌ»[3].

عليّ هو البوصلة والميزان

هذه النصوص لها دلالة كبيرة جدًّا، وهي ترتبط بمسألة الإتبّاع، حينما يتحدث النص عن حبّ عليّ فحبّه مقدمة لاتّباعه، والأمة مكلفة

(١) مسند أحمد بن حنبل، مسند أبي سعيد الخدري، حديث١١٤٥٥.
(٢) المستدرك على الصحيحين، ج٣، ص١٤١، حديث ٢٤٦.
(٣) صحيح مسلم، ص٥٥، حديث١٣١.

بحكم هذا النص أن تتبع عليّ بن أبي طالب عليه السلام. والموضوع لا ينحصر في الخلافة والحكم، ولكن الهدف الأسمى للحديث هو البعد الديني، من أين يأخذ المسلمون معالم دينهم وكيف يقيّمون المواقف؟ وكيف يقيّمون ما حدث في التاريخ؟ يجب أن يكون عليّ بن أبي طالب عليه السلام هو المقياس، وهو البوصلة، وإذا كان هناك في الماضي صراعات سياسية شوشت الرؤية، فيفترض في الأمة الإسلامية وهي تعيش هذا العصر الحاضر أن تتجاوز تلك الآثار، وأن تتعاطى مع عليّ بن أبي طالب كما يأمر رسول الله صلى الله عليه وآله فيما ورد عنه في كتب السنة والشيعة.

إضافة إلى أن شيعة عليّ عليه السلام عليّهم أن يلتفتوا إلى هذه الحقيقة؛ وهي أن محبتهم لعليّ، مقياس صدقها هو مقدار الاتّباع لعليّ بن أبي طالب عليه السلام، ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «إِنَّمَا شِيعَةُ عَلِيٍّ مَنْ عَفَّ بَطْنُهُ وَفَرْجُهُ، وَاشْتَدَّ جِهَادُهُ، وَعَمِلَ لِخَالِقِهِ، وَرَجَا ثَوَابَهُ وَخَافَ عِقَابَهُ»[1].

(١) الكافي، ج٢، ص٢٣٣.

قيادة الأمة

إن وجود القيادة الصالحة والمؤهلة في المجتمع لا يعني بالضرورة الالتفاف الاجتماعي حولها تلقائيًا. ذلك أن هنالك جملة عوامل مؤثرة في انقياد الناس خلف قيادة بعينها، وإن كانت هذه القيادة هي الأصلح والأكثر تأهيلًا، فقد يحول الجهل بين الناس ومعرفتهم بالأصلح لقيادتهم، وقد تلعب العصبيات دورها في صناعة الاستقطاب، حتى إن البعض ربما يعرف جيدًا، أن زيدًا من الناس هو المؤهل الأبرز والأفضل للقيادة، سوى أن ما يمنعه من ذلك، انتماؤه القومي، القبلي، المناطقي والفئوي المختلف، الذي يجعل الكفة تميل لأي أحد آخر غيره، وإن كان الأخير أقل أهلية وأدنى درجة.

كما قد تلعب الحالات النفسية دورها أيضًا على هذا

الصعيد، من قبيل حالات الحسد، فمن يستولي عليهم الحسد ربما لا يروقهم اختيار فلان من الناس قائدًا عليهم، وربما تورطوا في تضليل الناس وصرفهم عنه، وإن كان جديرًا بالقيادة، لا لشيء إلا لما في نفوس الحاسدين عليه. علاوة على ذلك، قد تتدخل مراكز القوى في المجتمع لتمييل كفة القيادة لصالح طرف ودفعها عن طرف آخر. من هنا نفهم أن وجود القيادة المؤهلة شيء، وتهيؤ الظروف لالتفاف الناس حول هذه القيادة شيء آخر.

لقد كان رسول الله ﷺ مدركًا تمام الإدراك لطبيعة الظروف المحيطة بمجتمعه، إزاء مسألة القيادة والخلافة من بعده. فقد كان المجتمع آنئذٍ قريب عهد بجاهلية، ولا تزال فيه مراكز قوى تبحث عن مصالحها، وتتشبث بمواقعها ـ شأن أي مجتمع بشري ـ، علاوة على ما لدى بعضهم من ثارات مع علي بن أبي طالب عليه السلام، بالنظر إلى الدور العسكري المشهود الذي قام به الإمام علي عليه السلام، إبان الغزوات الإسلامية التي أطاح فيها بالعديد من عتاة قريش، لذلك بقي في نفوس القرشيين خاصة شيء من التحسس تجاهه، ويحفل التاريخ بالكثير من النقولات والمواقف التي تؤكد هذه الحقيقة، ولسنا بصدد البحث فيها هنا.

في المحصلة، كان النبي ﷺ عارفًا حق المعرفة، أن الظروف الاجتماعية آنذاك لم تكن لتجعل مراكز القوى تسلم القياد للإمام علي عليه السلام، غير أنه ﷺ كان يرى مع ذلك ضرورة أن يكشف عن القيادة

المؤهلة الجديرة بالقيام بالمسؤولية.

نصوص الإمامة

وقد وردت في السياق سلسلة من النصوص النبوية التي تؤكد أحقية علي عليه السلام بالإمامة والقيادة. ومنها حديث الغدير، حين أوقف رسول الله صلى الله عليه وآله موكب الحجيج عند منصرفهم من الحج، بعد أن حجوا معه حجة الوداع في السنة العاشرة للهجرة، أوقف صلى الله عليه وآله الركب الذي كان يضم عشرات الآلاف من المسلمين، عند موقع يقال له غدير خم، ويبعد عن الجحفة ثلاثة أميال، وكانت الشمس آنئذ في أوج حرارتها، فقام صلى الله عليه وآله خطيبًا في الناس، ومما جاء في خطابه، أن سأل الحاضرين، «أَلَسْتُ أَوْلَى بِكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ»، كررها ثلاثًا، وهم يجيبونه بالتصديق والإقرار، ورفع النبي صلى الله عليه وآله بعد ذلك يد علي عليه السلام أمام جميع المسلمين، كما تشير المصادر الإسلامية، وقال: «مَنْ كُنْتُ مَوْلاَهُ فَعَلِيٌّ مَوْلاَهُ، اَللَّهُمَّ وَالِ مَنْ وَالاَهُ وَ عَادِ مَنْ عَادَاهُ». إن حديث الغدير هذا لا يناقش أي من علماء المسلمين في صحته، حيث رواه عشرات الصحابة، وجاء من خلال عشرات الطرق والأسانيد، وجميعها وردت بالنص المذكور أو قريب منه.

غير أن إخواننا السنة، ومع اعترافهم بصحة حديث الغدير، إلا أنهم يفسرونه على أنه إعلان من النبي عن المحبة لعلي بن أبي طالب. ويقولون إن مصطلح الولاء الوارد في الحديث إنما يعني المحبة،

فموالاة علي هنا تعني محبة علي.

أما ما فهمه أئمة أهل البيت عليهم السلام وشيعتهم من الحديث، فإنه نص وتأكيد على مرجعية وقيادة الإمام علي للأمة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله. وورد في مصادر الشيعة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام تأكيد متواتر لهذا الفهم والتفسير، ومن ذلك ما رواه أبو إسحاق، قال: قُلْتُ لِعَلِيِّ بْنِ اَلْحُسَيْنِ عليه السلام مَا مَعْنَى قَوْلِ اَلنَّبِيِّ صلى الله عليه وآله: مَنْ كُنْتُ مَوْلاَهُ فَعَلِيٌّ مَوْلاَهُ؟ قَالَ: «أَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ اَلْإِمَامُ بَعْدَهُ» [1]. وعن أبان بن تغلب أنه قَالَ: سَأَلْتُ أَبَا جَعْفَرٍ مُحَمَّدَ بْنَ عَلِيٍّ عليه السلام، عَنْ قَوْلِ اَلنَّبِيِّ صلى الله عليه وآله: مَنْ كُنْتُ مَوْلاَهُ فَعَلِيٌّ مَوْلاَهُ؟ فَقَالَ: «يَا أَبَا سَعِيدٍ، تَسْأَلُ عَنْ مِثْلِ هَذَا؟ أَعْلَمَهُمْ أَنَّهُ يَقُومُ فِيهِمْ مَقَامَهُ»[2].

إن النص على الإمام علي بعد النبي ليس مقتصرًا على حديث الغدير وحده. بل كان حديث الغدير كالإعلان الواضح الذي شهده على صعيد واحد أعداد كبيرة من الصحابة، إنه حديث الإشهار والإجهار بولاية الإمام علي، وبيان مقامه القيادي ومكانته للأمة، وإلا فقد سبقت حديث الغدير أحاديث ونصوص كثيرة تؤكد ذات الموضوع، غير أن من سمع تلك الأحاديث قد يكون عددًا محدودًا من الصحابة.

(١) بحار الأنوار، ج ٣٧، ص ٢٢٣، حديث ٩٦.
(٢) المصدر نفسه، ج ٣٧، ص ٢٢٣، حديث ٩٧.

معنى الولاية

وقد حفلت المصادر الحديثية السنية بكثير من النصوص الدالة على نص النبي ﷺ على ولاية علي على الأمة من بعده. وهناك تطابق واضح بين نصوص ودلالات عدد من تلك الروايات الواردة في مصادر السنة مع نظيراتها الواردة في المصادر الشيعية. ومن ذلك ما أوردته المصادر السنية من أحاديث تنص على الولاء لعلي عليه السلام بعد النبي ﷺ، ما يدلّ على أن المسألة ليست كما فسرها البعض بالمحبة حيث تناولت بعض الأحاديث النبوية، البعد الزمني ضمن مفردة «بعدي»، ولا معنى لذلك لو كان المقصود هو المحبة والنصرة، فهي مطلوبة في حياة النبي ﷺ أيضًا وليس بعده فقط. ما يعني أن المقام الذي يتحدث النبي عنه لعلي، إنما هو موضوع مستقبلي يغطي المرحلة التي تلي وفاته ﷺ.

ناهيك عن أنه لا معنى لأن يوقف النبي ﷺ عشرات آلاف الصحابة في هجير الصحراء، وتحت أشعة الشمس الحارقة، لمجرد إخبارهم بالمحبة لعلي بن أبي طالب عليه السلام، سيما وأن النبي ﷺ ـ وفق هذا المعنى ـ لم يأتِ بجديد على ما جاء به القرآن الكريم بتبادل الولاء بين جميع المؤمنين، في قوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾، وآنئذٍ لن يكون هنالك من داع ـ في حال تفسير الولاء بالمحبة ـ لأن يختص النبي عليًا بالمحبة على النحو الذي جرى في غدير خم.

وجاء التأكيد على ولاية علي بن أبي طالب بعد النبي ﷺ ضمن أحاديث واردة في كبرى مصادر الحديث عند السنة. فقد أورد الترمذي

في حديث رقم ٣٧١٢ عن عمران بن حصين عن رسول الله ﷺ في واقعة أنه قال «ما تريدون من علي، إن عليًا مني وأنا منه، وهو ولي كل مؤمن بعدي»، وهذا ما يتساوق إلى حدٍّ كبير مع ما ورد في حديث الغدير، «أَلَسْتُ أَوْلَى بِكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ»، وهو ما لا يقبل الشك في أن الحديث يتناول الولاية العامة على الناس وليس شيئًا آخر.

وجاء عن عبد الله بن بريدة عن أبيه عن رسول الله ﷺ أنه قال له: «لا تَقَعْ في عليٍّ؛ فإنَّه مِنِّي وأنا منه، وهو وَلِيُّكم بعدي»[١]. وعن وهب بن حمزة أنه تحدث بشيء عن علي بن طالب أمام النبي ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ: «لا تَقُلْ هَذَا، فَهُوَ أَوْلَى النَّاسِ بِكُمْ بَعْدِي»[٢]. ولا يمكن أن نفهم من هذه النصوص أنها إنما تتحدث عن المحبة والنصرة فقط.

هذا وتحتوي المصادر الحديثية عند إخواننا السنة، جملة من النصوص التي تؤكد جدارة الإمام علي عليه السلام لقيادة الأمة، والأخذ بها إلى الطريق المستقيم. جاء في مسند أحمد عن رسول الله ﷺ أنه قال: «... وإن تُؤَمِّرُوا عليًّا ـ ولا أَراكم فاعِلين ـ؛ تجدوه هاديًا مَهْدِيًّا، يأخذُ بكم الطريقَ المستقيمَ»[٣]، واللافت أن الحديث يستخدم مفردة «تُؤَمِّرُوا»، فلا مجال معها لأي تأويل آخر غير إمارة وقيادة الأمة.

وجاء في المستدرك على الصحيحين للحاكم النيسابوري في

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة، ج٥، ص٢٦٢.
(٢) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، ص١١٢، حديث٩.
(٣) مسند أحمد بن حنبل، مسند علي بن أبي طالب، ج١، ص٣١٩، حديث ٨٥٩.

الحديث رقم ٤٤٣٥ عن حذيفة بن اليمان أنه قال: إن جماعة من أصحاب النبي، قالوا يا رسول الله لو استخلفت علينا عليًا، قال: «إِنَّكُمْ لَا تَفْعَلُوا، وَإِنْ تَفْعَلُوا تَجِدُوهُ هَادِيًا مَهْدِيًّا، يَسْلُك بِكُمُ الطَّرِيقَ الْمُسْتَقِيمَ». كما جاء في كنز العمال بنفس السند: «قَالُوا: أَلَا تَسْتَخْلِفُ عَلِيًّا؟ قَالَ ﷺ: «إِنْ تَسْتَخْلِفُوهُ وَلَنْ تَفْعَلُوا يَسْلُكْ بِكُمُ الطَّرِيقَ وَتَجِدُوهُ هَادِيًا مَهْدِيًّا»[1].

وأخرج أبو نعيم في فضائل الصحابة، أن رسول الله ﷺ قال: «إِنْ تَسْتَخْلِفُوا عَلِيًّا، وَمَا أَرَاكُمْ فَاعِلِينَ، تَجِدُوهُ هَادِيًا مَهْدِيًّا، يَحْمِلُكُمْ عَلَى الْمَحَجَّةِ الْبَيْضَاءِ»[2]. وعلى غرار ذلك هناك كثير من هذه الأحاديث، الواردة في مصادر إخواننا السنة، وهذا ما يؤكد المعنى الذي يرمي إليه حديث الغدير حول ولاية الإمام علي للأمة بعد النبي.

الموقف الرسالي لعلي

غير أنه ومع جميع ما سبق، فقد تميز موقف علي عليه السلام إزاء إحجام الناس عن الالتفاف حوله بالمرونة الكبيرة. فقد كان عليه السلام يدرك مكانته ويعرف موقعه ودوره، وكان عنده كامل الاستعداد للقيام بمسؤولياته لو انقاد له الناس طوعًا، أما وقد أحجم الناس عن الانقياد له، فلم يكن ليلجأ إلى ممارسة القوة لانتزاع ذلك الموقع، فهو ليس بالباحث عن

(١) كنز العمال، ج١١، ص٦٣٠، حديث ٣٣٠٧٠.
(٢) أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، ج١، ص٦٤، حديث١٩٢.

المنصب، ولا المتعطش للسلطة والمكانة، بل لم يكن يرى أن من مسؤوليته الشرعية إجبار الناس على الاعتراف بقيادته وإمامته، وذلك انطلاقًا من موقف ديني مبدئي رافض لمنهجية الفرض والإكراه من أساسها.

إن الدين لا يشرّع لمنهجية الفرض بالقوة على الناس، وقد وجدنا فيما بعد عندما توجه الناس زرافات لمبايعة الإمام علي عليه السلام سنة ٣٥ هجرية، أي بعد نحو ٢٥ سنة من وفاة النبي صلى الله عليه وآله، عندها رأى الإمام عليه السلام أن يتحمل مسؤوليته، رغم عدم رغبته في تقلد الأمر حينها، حيث قال عليه السلام: «أَمَا والَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ وبَرَأَ النَّسَمَةَ لَوْ لا حُضُورُ الْحَاضِرِ وقِيَامُ الْحُجَّةِ بِوُجُودِ النَّاصِرِ ... لَأَلْقَيْتُ حَبْلَهَا عَلَى غَارِبِهَا »[1].

لم تكن منهجية الإمام علي وأئمة أهل البيت عليهم السلام في يوم من الأيام فرض أنفسهم على الناس بالقوة. وقد ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: وَقَدْ كَانَ رَسُولُ اَللَّهِ صلى الله عليه وآله عَهِدَ إِلَيَّ عَهْداً فَقَالَ: «يَا اِبْنَ أَبِي طَالِبٍ لَكَ وَلاَءُ أُمَّتِي فَإِنْ وَلَّوْكَ فِي عَافِيَةٍ وَأَجْمَعُوا عَلَيْكَ بِالرِّضَا فَقُمْ بِأَمْرِهِمْ، وَإِنْ اِخْتَلَفُوا عَلَيْكَ فَدَعْهُمْ وَمَا هُمْ فِيهِ»[2].

إن من المهم التأكيد باستمرار على منهجية علي عليه السلام تجاه مسألة الحكم، والتأكيد على مرجعية أمير المؤمنين وأئمة أهل البيت في تفسير تعاليم الدين. إنه لأمر بالغ الأهمية، خاصة في هذا العصر، الوقوف

(١) نهج البلاغة. خطبة ٣.
(٢) كشف المحجة لثمرة المهجة، ج١، ص٢٣٥.

على منهج علي عليه السلام، وهو ذات المنهج الذي أكده الرسول الأكرم في حديثه عن علي عليه السلام بقوله صلى الله عليه وآله: «يَسْلُك بِكُمُ الطَّرِيقَ الْمُسْتَقِيمَ»، و «يَحْمِلُكُمْ عَلَى الْمَحَجَّةِ الْبَيْضَاءِ». وينبغي الإشارة هنا، إلى أن المسألة لم تكن يومًا متعلقة بشخص علي عليه السلام وحسب، على عظم مكانته وفضله وخصوصيته، بل المسألة متعلقة بكونه الدليل إلى أخذ الأمة إلى الطريق المستقيم، والقادر أن يسلك بها المحجة البيضاء.

حديث الغدير

لا يحتاج حديث الغدير إلى مزيد مناقشة من حيث صحة السند، فقد اعتبره العلماء المسلمون من شتى المذاهب ـ إلّا من شذّ منهم ـ من الأحاديث الصحيحة سندًا، بل هو من أصحّ الأحاديث. لذلك نريد أن نتناول بعض أبعاد حديث الغدير، من زوايا أخرى.

المرجعية الدينية للأمة

إنّ هناك ثلاثة أبعاد يمكن تناولها حول واقعة الغدير.

يتمحور البعد الأول، في اعتبار أن الغرض الأساس من واقعة الغدير، هو تشخيص المرجعية للأمة في أخذ معالم الدين. إذ من الصحيح أنّ بين يدي الأمة كتاب الله، لكنه يحتاج في بعض آياته، إلى تفسير دقيق، وتنزيل على المصاديق الخارجية، ناهيك عن الأحداث المستجدة

التي يحتاج أن يتعرف المسلمون رأي الشّرع فيها. فمن هي الجهة التي تقوم مقام النبي ﷺ، بعد أن كانت الأمة ترجع إليه إبان حياته، لفهم معالم دينها؟.

من هنا نجد العديد من الأحاديث تشير إلى المرحلة التي تعقب وفاته، ومن ذلك قوله ﷺ في حديث الغدير: «كأني دعيت فأجبت»، وتلك إشارة صريحة منه ﷺ إلى مرحلة الفراغ الذي يلي وفاته، وإلى من يملأ هذا الفراغ، ويحدّد ذلك بأمرين؛ الكتاب والعترة، في قوله: «وإني تارك فيكم الثقلين أحدهما أكبر من الآخر كتاب الله وعترتي أهل بيتي»، حيث يمثل القرآن الكريم الخريطة والمنهج النظري للشريعة والدين، فيما يمثل أهل البيت الجهة المعنية بتنزيل هذا المنهج وتطبيقه على الواقع.

إنّ حديث الغدير يتناول المسألة العلمية والسلوكية لدى أهل بيت النبي ﷺ. إذ يمثل أهل البيت المرجعية للأمة في فهم الشريعة، بما يتجاوز جميع أهل زمانهم. وهنا قد تأتي مسألة دور الصحابة الذين عاصروا النبي ﷺ، ونقلوا حديثه، سيّما وقد منحتهم صحبتهم مستوى من القدرة على فهم آيات القرآن الكريم، ومعرفة كثير من الأحكام التي تحتاجها الأمة، لكنهم مع ذلك بشرٌ، تختلف أنظارهم، وتتفاوت آراؤهم، وتتعارض اجتهاداتهم، تمامًا كما يجري ذلك على صعيد العلماء والفقهاء، غير أنّ هذا لا يعني ألّا نستفيد من الصحابة ومما رووه وما نقلوه من الأحاديث. لكن ما هو الموقف إذا ما حدث

اختلاف في رأي أو فهم لقضية دينية، بين أصحاب رسول الله ﷺ؟ هل هناك جهة يكون لها القول الفصل في تحديد رأي الدين؟ انطلاقًا من حديث الغدير، وحديث الثقلين، وكثيرٍ من الأحاديث الأخرى، نعتقد أنّ أهل البيت عليهم السلام يتبؤون هذا المقام، فهم المرجعية الأساس للأمة، ولهم الكلمة الفصل في أحكام الدين.

من ناحية أخرى، يثبت الواقع التاريخي، أنّ أهل البيت وفي طليعتهم أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام، كانوا هم الأعمق معرفة بمعالم الدين، وبالشريعة بمختلف جوانبها وأبعادها. وفي هذا السياق يورد الباحث الإسلامي الدكتور ظافر القاسمي، أستاذ العربية والعلوم الإسلامية في الجامعة اللبنانية ما نصّه: «أمّا عليّ بن أبي طالب فكان أقضى الصحابة، ـ أي أوضحهم وأثبتهم وأصحهم قضاءً، ـ والظاهر أنه كان يُستشار، ولا يستشير، ومن يدري؟ فإنّ ورع الإمام ربما دعاه لأن يسأل وأن يستشير، ولكن لم ترِ لنا الكتب حادثة استشار فيها عليّ أحدًا من الصحابة»[1]، فقد كان الصحابة يحتاجون إلى علمه ويرجعون إليه، أما هو فلم يسجل التاريخ أنه رجع ولو مرة واحدة إلى أحد من الصحابة، في مسألة من المسائل، مما يدلّ على اكتفائه، وسعة علمه، قياسًا على سائر الصحابة.

وقد ورد عن عليّ عليه السلام أنه قال: «بَعَثَنِي رَسُولُ الله ﷺ إِلَى الْيَمَنِ،

(١) نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الإسلامي، ج٢، الطبعة الأولى ١٩٧٨م، (بيروت: دار النفائس)، ص٣٢٩.

فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله تَبْعَثُنِي وَأَنَا شَابٌّ أَقْضِي بَيْنَهُمْ، وَلَا أَدْرِي مَا الْقَضَاءُ؟ قَالَ: فَضَرَبَ بِيَدِهِ فِي صَدْرِي، ثُمَّ قَالَ: «اللَّهُمَّ اهْدِ قَلْبَهُ، وَثَبِّتْ لِسَانَهُ»، قَالَ: فَمَا شَكَكْتُ بَعْدُ فِي قَضَاءٍ بَيْنَ اثْنَيْن»[1].

وجاء في كتاب المناقب لابن المغازلي عن أمّ سلمة أنها قالت: «كان جبرئيل يملي على رسول الله ﷺ ورسول الله ﷺ يملي على علي»[2].

وعن عليّ عليه السلام أنه قال: «كُنْتُ أَدْخُلُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ص كُلَّ يَوْمٍ دَخْلَةً وَ كُلَّ لَيْلَةٍ دَخْلَةً، ... فَمَا نَزَلَتْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ آيَةٌ مِنَ الْقُرْآنِ إِلَّا أَقْرَأَنِيهَا وَ أَمْلَاهَا عَلَيَّ، فَكَتَبْتُهَا بِخَطِّي، وَعَلَّمَنِي تَأْوِيلَهَا، وَتَفْسِيرَهَا، وَنَاسِخَهَا وَمَنْسُوخَهَا، وَمُحْكَمَهَا وَمُتَشَابِهَهَا وَخَاصَّهَا وَعَامَّهَا، وَدَعَا اللَّهَ أَنْ يُعْطِيَنِي فَهْمَهَا وَحِفْظَهَا، فَمَا نَسِيتُ آيَةً مِنْ كِتَابِ الله، وَلَا عِلْماً أَمْلَاهُ عَلَيَّ وَكَتَبْتُهُ، مُنْذُ دَعَا الله لِي بِمَا دَعَا، وَمَا تَرَكَ شَيْئاً عَلَّمَهُ الله مِنْ حَلَالٍ وَلَا حَرَامٍ، وَلَا أَمْرٍ وَلَا نَهْيٍ، كَانَ أَوْ يَكُونُ، وَلَا كِتَابٍ مُنْزَلٍ عَلَى أَحَدٍ قَبْلَهُ مِنْ طَاعَةٍ أَوْ مَعْصِيَةٍ، إِلَّا عَلَّمَنِيهِ وَحَفِظْتُهُ، فَلَمْ أَنْسَ حَرْفاً وَاحِداً، ثُمَّ وَضَعَ يَدَهُ عَلَى صَدْرِي، وَدَعَا اللَّهَ لِي أَنْ يَمْلَأَ قَلْبِي عِلْماً وَفَهْماً وَحُكْماً وَنُوراً، فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ الله، بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، مُنْذُ دَعَوْتَ

(١) محمد ناصر الدين الألباني. صحيح ابن ماجة، ح١٨٨٣، وأخرجه أبو داود (حديث٣٥٨٢)، و(النسائي في السنن الكبرى، حديث٨٤٢١)، وأحمد (حديث١٢٨٠).

(٢) المناقب لابن المغازلي، ص٢٥٣، حديث٣٠٢.

الله لِي بِمَا دَعَوْتَ لَمْ أَنْسَ شَيْئاً، وَلَمْ يَفُتْنِي شَيْءٌ لَمْ أَكْتُبْهُ، أَفَتَتَخَوَّفُ عَلَيَّ النِّسْيَانَ فِيمَا بَعْدُ؟ فَقَالَ ﷺ: لَا، لَسْتُ أَتَخَوَّفُ عَلَيْكَ النِّسْيَانَ وَالْجَهْلَ»[1]. من هنا، نحن بإزاء شخصية عظيمة تمتلك المعرفة الشاملة، والعمق الكبير في فهم الدين، لذلك نصّ عليها النبي ﷺ باعتبارها المرجعية للأمة من بعده.

القيادة السّياسية

أما البعد الثاني من حديث الغدير فهو بعد القيادة السّياسية، أي الإمامة والخلافة. حيث نعتقد أنّ حديث الغدير، ونصوصًا أخرى، تحمل في طيّاتها دلالة على أنّ رسول الله ﷺ قد نصّ على الولي على أمور الأمة من بعده، وأنّ عليّ بن أبي طالب عليه السلام هو الإمام وهو الخليفة بنصّ رسول الله ﷺ، هذا ما نراه ونعتقده. غير أنّ سائر المسلمين لهم رأي آخر، فهم يرون أنّ واقعة الغدير لا تعدو كونها بيانًا لفضل عليّ، وتوجيهًا للأمة إلى محبته، أما مسألة الإمامة والخلافة السياسية، فلا يرون أنّ هذا النص يثبتها، وبقي هذا الأمر مورد نقاش طويل.

وقد اعتبر علماء الشيعة مسألة الولاية، بمعنى الخلافة والقيادة السياسية، مسألة نظرية محلّ بحث ونقاش، وذلك على قاعدة تقسيمهم للمسائل الدينية إلى قسمين؛ فهناك الضروريات، وهناك المسائل النظرية. وتشمل الضروريات المسائل الواضحة التي لا مجال فيها

(١) الكافي، ج١، ص٦٤.

للنقاش والجدل عند الأمة، من قبيل مسألة وجود الله سبحانه وتعالى، ووحدانيته، وحتمية المعاد، ووجوب الصلاة والصيام، فكلّها مسائل ضرورية من حيث الوجوب، ولا مجال للأخذ والردّ فيها. في المقابل هناك مسائل نظرية في الدين لا تتسم بهذه الدرجة من الوضوح لدى جميع المسلمين، إلى الحدّ الذي يعصمها من النقاش والجدل. وتبعًا لذلك يعتبر علماء الشيعة مسألة القيادة السّياسية لعليّ عليه السلام ضمن المسائل النظرية، فمن لم يثبت عنده هذا الفهم السّائد عند الشيعة لمسألة الإمامة فلا يخرجه ذلك من الدين؛ لأنه لم ينكر ضروريًّا من ضرورات الدين. وذلك بخلاف ما إذا ثبتت لديه مسألة الإمامة ثم أنكرها على نحو يعدّ مكذّبًا لرسول الله صلى الله عليه وآله، فهذا بحث آخر.

قال السّيد الخوئي في كتاب التنقيح: «لأنّ الضروري من الولاية إنّما هي الولاية بمعنى الحبّ والولاء، وهم غير منكرين لها بهذا المعنى، بل قد يظهرون حبّهم لأهل البيت عليهم السلام، وأمّا الولاية بمعنى الخلافة، فهي ليست بضرورية بوجه، وإنما هي مسألة نظرية، وقد فسّروها بمعنى الحبّ والولاء، ولو تقليداً لآبائهم وعلمائهم، وإنكارهم للولاية بمعنى الخلافة مستند إلى الشبهة كما عرفت، وقد أسلفنا أنّ إنكار الضروري إنما يستتبع الكفر والنجاسة فيما إذا كان مستلزمًا لتكذيب النبي صلى الله عليه وآله، كما إذا كان عالماً بأنّ ما ينكره مما ثبت من الدين بالضرورة، وهذا لم يتحقّق في حقّ أهل الخلاف، لعدم ثبوت الخلافة عندهم بالضرورة لأهل البيت عليهم السلام، نعم، الولاية بمعنى

الخلافة من ضروريات المذهب لا من ضروريات الدين»[1].

الاتباع والاقتداء

ويتمثل البعد الثالث من حديث الغدير، في الإشارة إلى النموذج والقدوة المتجسّدة في عليّ عليه السلام. حيث يمثل القدوة التي يجب التأسّي والاقتداء بها.

إنّ قضية الغدير ليست مجرّد مسألة عقدية، إذْ من المفروغ منه اعتقادنا بالنصّ على ولاية أمير المؤمنين عليه السلام، غير أنّ المسألة تكمن في مدى انعكاس هذه العقيدة في حياتنا، ذلك الانعكاس المتمثل في طاعة عليّ والاقتداء بسيرته وسيرة أهل بيته، وهذا كلّه ما يجب التركيز عليه.

من هنا نفهم سلسلة الروايات الواردة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام التي تؤكّد هذا المعنى للتشيّع، فقد ورد عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: «مَا شِيعَتُنَا إِلاَّ مَنِ اِتَّقَى اَللَّهَ وَأَطَاعَهُ»[2]، وجاء عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «لاَ تَذْهَبَنَّ بِكُمُ اَلْمَذَاهِبُ، فَوَ اَللَّهِ لاَ تُنَالُ وَلاَيَتُنَا إِلاَّ بِالْوَرَعِ وَاَلِاجْتِهَادِ فِي اَلدُّنْيَا، وَمُوَاسَاةِ اَلْإِخْوَانِ فِي اَللَّهِ، وَلَيْسَ مِنْ شِيعَتِنَا مَنْ يَظْلِمُ اَلنَّاسَ»[3]، وعنه عليه السلام أنه قال: «لَيْسَ مِنْ شِيعَتِنَا مَنْ قَالَ بِلِسَانِهِ،

(١) السيد أبو القاسم الخوئي. التنقيح في شرح العروة الوثقى، ج٢، الطبعة الرابعة١٤١٧هـ، ص٨٦.
(٢) الكافي، ج٢، ص٧٤، حديث٣.
(٣) تحف العقول، ص٢٢٣.

وَخَالَفَنَا فِي أَعْمَالِنَا وَآثَارِنَا»[1]، وقال عليه السلام: «إِنَّمَا أَنَا إِمَامُ مَنْ أَطَاعَنِي»[2]، وروي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «شِيعَتُنَا... بَرَكَةٌ عَلَى مَنْ جَاوَرُوا، وَسِلْمٌ لِمَنْ خَالَطُوا»[3]. وبذلك تتجلى الولاية لعليّ في سلوكنا وأفعالنا.

(١) بحار الأنوار، ج٦٥، ص١٦٤.
(٢) المصدر نفسه، ج٢، ص٨٠، حديث٧٦.
(٣) الكافي، ج٢، ص٢٣٧، حديث٢٤.

الفصل الثاني

الضمير الحيّ

الأحرص على وَحْدَةِ الأمة

يفخر الإمام علي عليه السلام بأنه الأحرص على جماعة الأمة وألفتها، كما ورد في كتاب له ذكره الشريف الرضي في نهج البلاغة يقول فيه: «وَلَيْسَ رَجُلٌ فَاعْلَمْ أَحْرَصَ عَلَى جَمَاعَةِ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله وَأُلْفَتِهَا مِنِّي، أَبْتَغِي بِذَلِكَ حُسْنَ الثَّوَابِ، وَكَرَمَ الْمَآبِ. وَسَأَفِي بِالَّذِي وَأَيْتُ عَلَى نَفْسِي»[1].

وسيرة عليٍّ تصدق قوله وتثبت دعواه، فقد غضّ طرفه عن حقّه في الخلافة والقيادة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، وكما قال لما عزموا على بيعة عثمان: «لَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنِّي أَحَقُّ النَّاسِ بِهَا مِنْ غَيْرِي وَوَاللَّهِ لَأُسْلِمَنَّ مَا سَلِمَتْ أُمُورُ الْمُسْلِمِينَ وَلَمْ يَكُنْ فِيهَا جَوْرٌ إِلَّا عَلَيَّ خَاصَّةً الْتِمَاساً

(١) نهج البلاغة، ومن كتاب له عليه السلام إلى أبي مُوسَى الأَشْعَري، رقم ٧٨.

لِأَجْرِ ذَلِكَ وَفَضْلِهِ وَزُهْداً فِيمَا تَنَافَسْتُمُوهُ مِنْ زُخْرُفِهِ وَزِبْرِجِهِ»[1].

لماذا لم يدافع عليٌّ عن حقّه؟

ما يهمّنا الآن هو الإجابة عن تساؤل مُلِحٍّ يفرض نفسه، حول موقف الإمام عليّ عليه السلام من عدم الدفاع عن حقّه بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، هذا الحقّ الذي تمسّك به الإمام عليّ وتحدّث عنه مرارًا، لكنه لم يتّخذ إجراءً عمليًّا للدفاع عن حقّه في الخلافة حينما زوي عنه هذا الحقّ، بل دخل فيما دخل فيه الناس، وعاش في ظلّ الخلفاء، وشاركهم برأيه وجهده في خدمة مصالح الدين والأمة.

بالتأكيد لم يكن شاكًّا أو متردّدًا في حقّه، ولم تكن تنقصه الشّجاعة والبطولة، وهو الذي نقل عنه أنه قال: «لَو تَظاهَرَتِ العَرَبُ عَلى قِتالي لَما وَلَّيتُ عَنها»[2].

وهو القائل لما قبض رسول الله صلى الله عليه وآله ـ وخاطبه العباس وأبو سفيان بن حرب ـ في أن يبايعا له بالخلافة، وذلك بعد أن تمت البيعة لأبي بكر في السقيفة، وفي إطار ردّه على من فسّر سكوته بالخوف من الموت متعجّباً من ذلك، وهو الذي ثبت حين نكصت الأبطال في بدرٍ وأحدٍ وحنين والأحزاب وخيبر، التي أثبتت مدى ولهه وشغفه بالشّهادة ولَهَ الرضيع بثدي أمّه، قال عليه السلام: «وإِنْ أَسْكُتْ يَقُولُوا جَزِعَ مِنَ الْمَوْتِ –

(١) نهج البلاغة، ومن خطبة له عليه السلام لما عزموا على بيعة عثمان، رقم ٧٤.
(٢) المصدر نفسه، الكتاب ٤٥. ومن كتاب له عليه السلام إلى عثمان بن حنيف الأنصاري وهو عامله على البصرة.

هَيْهَاتَ بَعْدَ اللَّتَيَّا والَّتِي واللَّه لَابْنُ أَبي طَالِبٍ آنَسُ بالْمَوْتِ مِنَ الطِّفْلِ بِثَدْي أُمِّهِ»[1].

لماذا لم يتحرّك إذاً؟! لماذا لم يدافع عن حقّه؟!

هذا السؤال كان مطروحًا على عليٍّ عليه السلام وقد أجاب عنه، ليس في موقف واحد، ولا مرة واحدة، بل إنّ الأحاديث والمصادر تنقل عدة مواقف أجاب فيها الإمام عن هذا التساؤل، ومضمون إجابة الإمام كما سننقل بعض الشواهد منها، أنه راعى المصلحة العامة للدين والأمة؛ لأنه رأى أنّ دفاعه عن حقّه في ذلك الوقت، والأمة ناشئة حديثة التكون، وقد فقدت للتوِّ نبيها وقائدها رسول الله صلى الله عليه وآله، وهناك ثارات أعداء يتربصون بالأمة الدوائر، وقد بدأت بعض الفئات ترتدّ عن الدين، وتشيع حالة الارتداد، رأى الإمام عليٌّ أنه إذا دافع عن حقّه ونهض وثار، فسيحدث انقسام في الأمة، وستكون هناك حرب أهلية، تسفك فيها الدماء، ويتحيّن الأعداء فيها الفرصة، ويصبح دليلًا عند المرتدين والمشككين بأنّ المسألة نزاع على السّلطة، وليس هناك دين، وليس هناك حقيقة، وإنّما هو صراع قبلي سلطوي، رأى نفسه أمام هذا الموقف، له حقّ لكن الدفاع عن هذا الحقّ سيؤدي إلى انهيار الكيان الإسلامي، وإلى احتراب ومشاكل كبيرة تواجه الدين والأمة، لو أنّ شخصا آخر غير عليٍّ لعله ما كان يهمّه ماذا ستكون النتائج، بل يهمّه أن يجد طريقًا للوصول إلى السلطة والحكم، لكن عليًّا كان يعيش هَمَّ

(١) نهج البلاغة، خطبة ٥.

الدين، ويفكر في مصلحة الأمة، لذلك لم يتحرك دفاعًا عن حقّه، بما يؤدي إلى تقويض مصلحة الأمة، وضياع مستقبل الدين، وهذا ما يظهر من نصوص كثيرة نقلتها المصادر التاريخية وكتب الحديث.

عليٌّ يتحدّث عن موقفه

جاء في كتاب (الشافي في الإمامة) أنّ بريدة، وكان من الصحابة الأجلاء، وقد سمع مباشرة من رسول الله ﷺ أنه قال له: يا بريدة، عليٌّ وليّكم من بعدي، لذلك جَاءَ حَتَّى رَكَزَ رَايَتَهُ فِي وَسَطِ (أَسْلَمَ) ثُمَّ قَالَ: لاَ أُبَايِعُ حَتَّى يُبَايِعَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام، فَقَالَ عَلِيٌّ عليه السلام: «يَا بُرَيْدَةُ اُدْخُلْ فِيمَا دَخَلَ فِيهِ اَلنَّاسُ فَإِنَّ اِجْتِمَاعَهُمْ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنِ اِخْتِلاَفِهِمُ اَلْيَوْمَ»[1].

وللإمام علي خطبة في (ذي قار) جاء فيها: «قَد جَرَت اُمورٌ صَبَرنا فيها، وفي أعيُنِنَا القَذى؛ تَسليما لِأَمرِ اللّه تَعالى فيمَا امتَحَنَنا بِهِ؛ رَجاءَ الثَّوابِ عَلى ذلِكَ، وكانَ الصَّبرُ عَلَيها أمثَلَ مِن أن يَتَفَرَّقَ المُسلِمونَ، وتُسفَكَ دِماؤُهُم»[2] لاحظ قول الإمام أن الصبر على ضياع هذا الحقّ أمثل، أي أولى وأفضل من أن يتفرّق المسلمون وتسفك دماؤهم، هذا يقوله من يهتمّ بوحدة المسلمين، وحماية دمائهم، أمّا أصحاب النزعات السّلطوية، والمطامع الدنيوية، فلا يهمّهم ذلك، تفرّق المسلمون أو اتّحدوا، لا يهمّهم، سفكت الدماء أو حفظت، لا يهمهم،

(١) الشافي في الإمامة. الشريف المرتضى، ج ٣، ص ٢٤٣.
(٢) الإرشاد، ج١، ص٢٤٩.

لكن عليًّا يهمّه ذلك.

وعنه عليه السلام من خطبة له قبل حرب الجمل: «إنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وآله حينَ قُبِضَ كُنّا نَحنُ أهلَ بَيتِهِ، وعُصبَتَهُ، ووَرَثَتَهُ، وأولِياءَهُ، وأحَقَّ خَلقِ اللّهِ بِهِ، لا نُنازَعُ في ذلِكَ . . . إلى أن قال: فَانتَزَعوا سُلطانَ نَبيِّنا مِنّا، ووَلَّوهُ غَيرَنا، وَايمُ اللّه فَلَولا مَخافَةُ الفُرقَة بَينَ المُسلِمينَ أن يَعودوا إلَى الكُفرِ لَكُنّا غَيَّرنا ذلِكَ مَا استَطَعنا»[1].

وفي كتاب له عليه السلام إلى أهل مصر بعثه مع مالك الأشتر: «تَنَازَعَ الْمُسْلِمُونَ الْأَمْرَ مِنْ بَعْدِهِ فَوَاللَّهِ مَا كَانَ يُلْقَى فِي رُوعِي وَلَا يَخْطُرُ بِبَالِي أَنَّ الْعَرَبَ تُزْعِجُ هَذَا الْأَمْرَ مِنْ بَعْدِهِ صلى الله عليه وآله عَنْ أَهْلِ بَيْتِهِ وَلَا أَنَّهُمْ مُنَحُّوهُ عَنِّي مِنْ بَعْدِهِ فَمَا رَاعَنِي إِلَّا انْثِيَالُ النَّاسِ عَلَى فُلَانٍ يُبَايِعُونَهُ فَأَمْسَكْتُ يَدِي حَتَّى رَأَيْتُ رَاجِعَةَ النَّاسِ قَدْ رَجَعَتْ عَنِ الْإِسْلَامِ يَدْعُونَ إِلَى مَحْقِ دَيْنِ مُحَمَّد صلى الله عليه وآله فَخَشِيتُ إِنْ لَمْ أَنْصُرِ الْإِسْلَامَ وَأَهْلَهُ أَنْ أَرَى فِيهِ ثَلْماً أَوْ هَدْماً تَكُونُ الْمُصِيبَةُ بِهِ عَلَيَّ أَعْظَمَ مِنْ فَوْتِ وِلَايَتِكُمُ الَّتِي إِنَّمَا هِيَ مَتَاعُ أَيَّامٍ قَلَائِلَ»[2].

وفي تاريخ الطبري ومصادر أخرى

لَمَّا اجْتَمَعَ النَّاسُ عَلَى بَيْعَةِ أَبِي بَكْرٍ، أَقْبَلَ أَبُو سُفْيَانَ، وَهُوَ يَقُولُ: وَاللَّهِ إِنِّي لأَرَى عَجَاجَةً لا يُطْفِئُهَا إِلا دَمٌ يَا آلَ عَبْدِ مَنَافٍ، فِيمَ أَبُو بَكْرٍ

(١) الأمالي للمفيد، ج١، ص١٥٥، حديث٦.

(٢) نهج البلاغة، ومن كتاب له عليه السلام إلى أهل مصر مع مالك الأشتر لما ولاه إمارتها، رقم (٦٢).

مِنْ أُمُورِكُمْ؟ أَيْنَ الْمُسْتَضْعَفَانِ؟ أَيْنَ الأَذَلانِ عَلِيٌّ وَالْعَبَّاسُ؟ وَقَالَ: أَبَا حَسَنٍ ابْسُطْ يَدَكَ حَتَّى أُبَايِعَكَ، فَأَبَى عَلِيٌّ عَلَيْهِ فَجَعَلَ يَتَمَثَّلُ بِشِعْرِ الْمُتَلَمِّسِ:

وَلَنْ يُقِيمَ عَلَى خَسْفٍ يُرَادُ بِهِ إِلا الأَذَلانِ عِيرُ الْحَيِّ وَالْوَتَدُ
هَذَا عَلَى الْخَسْفِ مَعْكُوسٌ بِرُمَّتِهِ وَذَا يُشَجُّ فَلا يَبْكِي لَهُ أَحَدُ

قَالَ: فَزَجَرَهُ عَلِيٌّ، وَقَالَ: «إِنَّكَ وَاللَّهِ مَا أَرَدْتَ بِهَذَا إِلا الْفِتْنَةَ، وَإِنَّكَ وَاللَّهِ طَالَمَا بَغَيْتَ لِلْإِسْلَامِ شَرًّا، لا حَاجَةَ لَنَا فِي نَصِيحَتِكَ»[1].

حماية كيان الأمة

والمصداق الأهم لحرصه على وحدة الأمة والمصلحة العامة هو دعمه لكيان الدولة القائمة برأيه ومشورته، فهو لم يعتزل ولم يخضع لأيِّ مشاعر انتقامية، ولا تعامل مع الخلفاء انطلاقًا من موقف شخصي، بل إنّ علي بن أبي طالب تحمّل مسؤوليته، فكان مع الخلفاء ومع الأمة، يحضر المسجد، ويُسْتَشَار ويشير فيعطي رأيه، وينقذ الأمة، ويساعد الخلفاء في مواقف كثيرة.

فهناك أكثر من تسعين موردًا في قضايا عسكرية واقتصادية وسياسية ودينية استشار فيها الخليفة عمر الإمام عليًّا وأخذ برأيه، سجلها مع ذكر

(١) تاريخ الطبري. ابن جرير الطبري، ج٣، ص٢٠٩. الكامل في التاريخ. ابن الأثير، ج٢، ص ١٨٧-١٨٨.

مصادرها الشيخ نجم الدين العسكري في كتابه (علي والخلفاء)[1].

ولنا أن نتساءل: كيف كان الخليفة عمر يستشيره إن لم يكن يثق به ويطمئنّ إلى رأيه؟

إنّ عليًّا عليه السلام لم يكن ينظر إلى الخلفاء من موقع العداء الشخصي فيكيد لهم، ويسعى للانتقام منهم، وهم في المقابل كانوا ينظرون لعليٍّ كمعين ثقة، ومساعد أمين، فيما هو لمصلحة الأمة والدين، وإلّا لو كان عمر وأبو بكر ينظران لعليٍّ كعدو لما رجعا إليه ووثقا برأيه، وكان الإمام علي عليه السلام يمحضهم النصيحة، ويشير عليهم بما ينفع الأمة وكيان المسلمين، حتى أُثِرَ عن الخليفة عمر أنه كان يتعوّذ بالله من معضلة ليس لها أبو الحسن علي[2].

وعن يحيى بن عقيل، قال: كان عمر يقول لعلي إذا سأله ففرج عنه، لا أبقاني الله بعدك يا علي[3].

وعن أبي سعيد الخدري، أنه سمع عمر يقول لعليٍّ وقد سأله عن شيء فأجابه: أعوذ بالله أن أعيش في يوم لست فيه يا أبا الحسن، وروى ـ أيضًا ـ عن عمر قوله: «لولا علي لهلك عمر»[4]، ودعاؤه

(١) نجم الدين العسكري، علي والخلفاء، مطبعة الآداب، النجف الأشرف، ١٣٨٠هـ.
(٢) المتقي الهندي، كنز العمال ج١٠، ص٣٠٠، حديث٢٩٥٠٩.
(٣) أحمد بن عبد الله الطبري، ذخائر العقبى في مناقب ذوي القربى، ص١٥٠، ط١، ١٤١٥هـ، مكتبة الصحابة، جدة.
(٤) المصدرنفسه، ص١٤٩.

أيضًا «اللهم لا تنـزل بي شدة إلَّا وأبو الحسن إلى جنبي»[1]، ونصوص أخرى وردت عن الخليفة عمر في الإشادة بدور الإمام علي وردت في المصادر المعتمدة.

ومع أنّ الإمام عليه السلام أبدى عدم رضاه عن بعض السياسات في عهد الخليفة عثمان، وبخاصة دور البطانة التي كانت حول الخليفة، إلَّا أنه ما انفكّ يقدم النصيحة والرأي لعثمان، وحاول كثيرًا أن يعالج موضوع التمرد على الخليفة، فكان واسطة وسفيرًا بين المعارضين والخليفة أكثر من مرة، لكن الأمر خرج من يده، وحينما حوصر عثمان ومُنِع عنه الماء استنجد بعليٍّ، فبعث الإمام ولديه الحسنين بِقِرَب الماء حتى يدخلوها إلى بيت عثمان[2].

وفي نصوص تاريخية ذكرتها كتب أهل السنة أنه عليه السلام أمر ولديه الحسنين أن يبقيا على باب عثمان حراسةً له[3]، لكن المعارضين تسلقوا من بيوت الجيران على دار الخليفة.

استيعاب المعارضة

كما أنّ حرصه عليه السلام على الوحدة أيام خلافته هو الذي دفعه لقبول التحكيم ووقف الحرب في صفين؛ لأنّ ذلك كان رأي الأكثرية من جيشه.

(١) ذخائر العقبى في مناقب ذوي القربى، ص١٤٩.
(٢) محمد بن جرير الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٣، ص٤١٧، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت.
(٣) ابن قتيبة: الإمامة والسياسة، ج١، ص٤٢، الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج٢، ص٤٨٦.

وحرصه عليه السلام على الوحدة هو الذي جعله يتحمّل استفزازات الخوارج الذين كفّروه، وكانوا يجهرون بمعارضته حتى أثناء خطبته في المسجد.

جاء في دعائم الإسلام أنه عليه السلام خطب بالكوفة فقام رجل من الخوارج فقال: لا حكم إلّا لله، فسكت علي، ثم قام آخر وآخر، فلما أكثروا عليه قال عليه السلام: «كَلِمَةُ حَقٍّ يُرَادُ بِهَا بَاطِلٌ، لَكُمْ عِنْدَنَا ثَلَاثُ خِصَالٍ: لَا نَمْنَعُكُمْ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ تُصَلُّوا فِيهَا، وَلَا نَمْنَعُكُمُ الْفَيْءَ مَا كَانَتْ أَيْدِيكُمْ مَعَ أَيْدِينَا، وَلَا نَبْدَؤُكُمْ بِحَرْبٍ حَتَّى تَبْدَءُونَا بِهِ»[1].

منطلقات النهج الوحدوي

لماذا هذه الدرجة القصوى من الحرص على الوحدة في سيرة الإمام علي عليه السلام بحيث لا يمكن أن تجدها في سيرة غيره، كما يقول عليه السلام: «وَلَيْسَ رَجُلٌ فَاعْلَمْ أَحْرَصَ عَلَى جَمَاعَةِ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله وَأُلْفَتِهَا مِنِّي؟»[2].

يمكننا أن نتحدث عن ثلاثة منطلقات كانت وراء هذا الحرص الأكبر عند الإمام علي والأئمة من أهل البيت عليهم السلام على الوحدة:

الأول: المنطلق الديني

فالأئمة عليهم السلام هم أعرف الناس بأغراض الدين ومبادئ الشريعة ومقاصدها، وبالتالي هم أحرص الناس على تحقيق تلك الأغراض

(١) القاضي النعمان: دعائم الإسلام، ج١، ص٣٦٣.
(٢) البلاغة، ومن كتاب له عليه السلام إلى أبي مُوسَى الأَشْعَري، رقم ٧٨.

والوصول إلى تلك المقاصد.

والوحدة الإسلامية من أهم مقاصد الدين، ومن أهم أهداف الرسالة المقدسة، فهي ليست مسألة تكتيكية، أو عملاً وقتياً، إنّما هي مبدأ يتعبّد الإنسان بالالتزام به إلى الله تعالى، وآيات القرآن الكريم شاهدة على ذلك، يقول تعالى: ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾[سورة المؤمنون: الآية ٥٢]، ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾[سورة الأنبياء: الآية ٩٢]، ﴿وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ﴾[سورة آل عمران: الآية ١٠٣]، وكقوله تعالى: ﴿وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَاخْتَلَفُواْ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٠٥].

وكما نقل عن الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء قوله: «بني الإسلام على دعامتين كلمة التوحيد وتوحيد الكلمة»

إنّ الإمام عليًّا عليه السلام يتقرّب إلى الله ويبتغي ثوابه بحرصه على الوحدة، كما يقول عليه السلام: «وَلَيْسَ رَجُلٌ فَاعْلَمْ أَحْرَصَ عَلَى جَمَاعَةِ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله وَأُلْفَتِهَا مِنِّي، أَبْتَغِي بِذَلِكَ حُسْنَ الثَّوَابِ، وَكَرَمَ الْمَآبِ. وَسَأَفِي بِالَّذِي وَأَيْتُ عَلَى نَفْسِي»[1].

الثاني: الوعي الحضاري:

كان الإمام علي عليه السلام يفهم الإسلام مشروعًا حضاريًّا لبناء أمة رائدة

(١) نهج البلاغة، ومن كتاب له عليه السلام إلى أبي مُوسَى الأَشْعَري، رقم ٧٨.

وكيان قوي، وتقديم أنموذج للبشرية، كما يقول تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾[سورة البقرة: الآية ١٤٣]، وقوله تعالى: ﴿وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[سورة البقرة: الآية ١٣٩].

ولا يتحقق هذا المشروع إذا انشغل أبناؤه بالمصالح الخاصة والقضايا الجانبية، يقول الإمام علي عليه السلام: «فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ قَدْ امْتَنَّ عَلَى جَمَاعَةِ هذِهِ الأُمَّةِ فِيما عَقَدَ بَيْنَهُمْ مِنْ حَبْلِ هذِهِ الأُلْفَةِ الَّتِي يَنْتَقِلُونَ فِي ظِلِّهَا، وَيَأْوُونَ إِلَى كَنَفِهَا، بِنِعْمَة لاَ يَعْرِفُ أَحَدٌ مِنَ الْـمَخْلُوقِينَ لَهَا قِيمَةً، لِأَنَّهَا أَرْجَحُ مِنْ كُلِّ ثَمَن، وَأَجَلُّ مِنْ كُلِّ خَطَر»(١).

هكذا ينظر الإمام علي عليه السلام إلى الألفة إنها أرجح وأجلّ من أي مكسب آخر.

وورد عنه عليه السلام أنه قال: «إِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ لَمْ يُعْطِ أَحَداً بِفُرْقَة خَيْراً مِمَّنْ مَضَى، وَلاَ مِمَّنْ بَقِيَ»(٢).

فقد يتصور أحد أنه يحصل على بعض المكاسب من خلال ممارسة النزاع والفرقة، لكن الإمام يؤكد أن ذلك ليس مكسب خير أبدًا، إنه مكسب متوهم، أو يكون مكسبًا جزئيًا، يؤدي إلى خسائر استراتيجية باهظة.

(١) نهج البلاغة، خطبة رقم ١٩٢.
(٢) المصدر نفسه، خطبة رقم ١٧٦.

الثالث: طهارة النفس

إنّ من أبرز العوائق في طريق تحقيق الوحدة بين أبناء الأمة، أنّ بعض أبنائها قد يدرك أبعاد وأهداف الوحدة، لكن الطموح إلى المطامع والمصالح الشخصية أو الفئوية هي التي تجعله يميل عن طريق الوحدة، ويسلك طريق الصراع والخلاف، من أجل أن يحقق مصلحة ما ومكسبًا معيّنًا، أما أهل البيت عليهم السلام فإنّ نفوسهم كانت طاهرة، يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[سورة الأحزاب: الآية ٣٣]، فلم يكن في نفوسهم حبّ لمنصب، أو مصلحة، أو مكسب.

إنّ المطامع والمكاسب الفردية والفئوية هي التي تجعل البعض يسير في طريق الانشقاق والخلاف والصراع. أما أهل البيت فإنّ نفوسهم طاهرة من هذه المآرب والأغراض، لذلك كانوا أحرص الناس على وحدة المسلمين.

فقدّموا التنازلات والتضحيات، وبذلوا أغلى الأثمان من أجل أن يحافظوا على وحدة الأمة الإسلامية، فجزاهم الله عن أمة النبي صلى الله عليه وآله خير الجزاء.

ويشير الإمام علي عليه السلام إلى تساميه عن المطامع والمطامح بقوله عليه السلام: «وَاللَّهِ لَأُسْلِمَنَّ مَا سَلِمَتْ أُمُورُ الْمُسْلِمِينَ وَلَمْ يَكُنْ فِيهَا جَوْرٌ إِلَّا عَلَيَّ خَاصَّةً الْتِمَاساً لِأَجْرِ ذَلِكَ وَفَضْلِهِ وَزُهْداً فِيمَا تَنَافَسْتُمُوهُ مِنْ زُخْرُفِهِ

وَزِبْرِجِهِ»[1].

ويقول عبدالله بن عباس: دَخَلْتُ عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ﷺ بِذِي قَارٍ، وَهُوَ يَخْصِفُ نَعْلَهُ، فَقَالَ لِي: «مَا قِيمَةُ هَذَا النَّعْلِ؟» فَقُلْتُ: لَا قِيمَةَ لَهَا. فَقَالَ ﷺ: «وَاللَّهِ لَهِيَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ إِمْرَتِكُمْ إِلَّا أَنْ أُقِيمَ حَقّاً أَوْ أَدْفَعَ بَاطِلًا»[2].

كيف تعامل علي مع الخلفاء؟

كان الإمام عليٌّ ﷺ يؤمن بحقِّه في قيادة الأمة بعد رسول الله ﷺ، لكنَّه حين رأى أنَّ الأمور أخذت مسارًا آخر، وتولَّى الخلافة غيره، سجَّل موقفه المعترض، وامتنع عن البيعة لمدة، لكنَّه تغاضى عن ذلك الحقّ، حيث رأى أنَّ السَّعي للوصول إليه يستلزم انشقاق الأمة، واحترابها الداخلي، في وقت كانت تواجه فيه تحدِّيات خارجية كبيرة، تتمثل في حركة الارتداد عن الإسلام، وتآمر قوى اليهود والنَّصارى والمنافقين على كيان الدِّين والأمة.

تأمّل الموقف الوحدوي

كم نحن بحاجة إلى قراءة هذه السيرة العلوية العظيمة، وتأمل هذا الموقف الوحدوي الصلب، لنتحمّل مسؤولياتنا تجاه ديننا ومجتمعنا ووطننا، في رعاية الوحدة، والحرص على حمايتها، في مختلف

(١) نهج البلاغة، ومن خطبة له ﷺ لما عزموا على بيعة عثمان، خطبة رقم ٧٣.
(٢) المصدر نفسه، ومن خطبة له ﷺ عند خروجه لقتال أهل البصرة، خطبة رقم ٣٣.

مستوياتها: على الصعيد الاجتماعي والوطني، وعلى مستوى الأمة، وخاصة في هذه الظروف الخطيرة، التي تتعرض فيها أوطان المسلمين إلى فتن الاختلاف، ومؤامرات التقسيم.

إنَّ هذا الموقف من الإمام عليٍّ عليه السلام يقدِّم لأجيال الأمة درسًا أخلاقيًّا، بأن يقدِّم الإنسان المصلحة العامة على حساب حقوقه الخاصَّة.

ولا نريد أن نقارب هذا الدرس أخلاقيًا مقاربة سياسية؛ لأنَّ العمل السِّياسي تمارسه فئة محدودة من الناس.

بل نريد مقاربة هذا الدَّرس الأخلاقي على الصَّعيد الاجتماعي؛ لعموم الحاجة إليه، ونشير إلى مجالين:

المجال الأول: مجال العمل في المؤسَّسات الاجتماعيَّة كالجمعيَّات الخيريَّة والأندية الرياضَّية، والهيئات الدينيَّة، والأنشطة الثقافيَّة.

ففي هذه المؤسسات قد تختلف وجهات النظر بين العاملين فيها، وقد يتنافسون على إدارتها، وقد يرى البعض نفسه أجدر بهذا الموقع أو ذاك، أو أنَّ رأيه أصح وأصوب في هذه القضيَّة أو تلك، وقد يشعر البعض بالحيف على دوره أو حقِّه.

وهنا يتمايز موقفان:

١. الموقف الانفعاليُّ الشَّخصيُّ، كأن ينسحب من المؤسَّسة، ويمنع دعمها، وقد يعرقل مسارها، أو يشوِّه سمعة القائمين

على إدارتها.

٢. وفي مقابله الموقف الأخلاقي المسؤول حيث يسعى للحفاظ على كيان المؤسَّسة، ودعمه، وتقويته، وترشيد إدارته ومساره.

المجال الثاني: المجال العائلي: حيث تحصل خلافات عائلية، ويرى أحد الزوجين أنَّ هناك حيفًا وجورًا على حقِّه.

وهنا نجد أيضًا تمايزًا بين موقفين:

١. موقف يصرُّ على مطالبه، ويستخدم كلَّ جهده ضدَّ الطَّرف الآخر على حساب كيان الأسرة، ومصلحة أبنائها.

٢. وموقف واعٍ يقدِّم التنازلات لحماية كيان الأسرة، وحفظ مستقبل أبنائها.

علينا أن نستحضر هذا الدَّرس الأخلاقي من سيرة الإمام علي عليه السلام.

رغم إيمان الإمام عليًّا عليه السلام بحقِّه، إلا أنه تعامل مع الخلفاء تعاملًا إيجابيًّا، حيث كان يقدِّم لهم المشورة الهادية، ويدعم جهودهم في الدفاع عن كيان الإسلام. وأذن لعدد من خلَّص أصحابه بتولِّي مسؤوليات في إدارة دولة الخلافة، ومنهم:

١. سلمان الفارسي، كان واليًا على المدائن من قبل الخليفة عمر.

٢. حذيفة بن اليمان، أول الولاة على أذربيجان، ثم نقله عمر

إلى ولاية المدائن بعد استعفاء سلمان الفارسي، ثم عيَّنه عثمان واليًا على أرمينية.

٣. عمَّار بن ياسر، كان أميرًا على الكوفة من قبل الخليفة عمر، كما بعثه الخليفة عثمان مفتِّشًا إلى مصر، للنَّظر في أوضاع الولاة.

أولوية المصلحة العامة

إنَّ سيرة الإمام عليٍّ عليه السلام تمثل أنموذجًا مشرقًا في تقديم المصلحة العامَّة على المصلحة الخاصَّة، وفي التَّسامي على الذَّات من أجل حفظ كيان الدين والمجتمع.

إنَّ محبَّة الإمام علي عليه السلام والاعتقاد بولايته، وإمامته، يعني اتباعه والاقتداء بسيرته وهديه.

إنَّ وجود المؤسَّسات الاجتماعية مكسب للوطن والمجتمع، ولا يصحُّ لأحدٍ إضعاف أيِّ مؤسَّسة اجتماعيَّة من أجل حسابات شخصيَّة أو فئويَّة.

لا بُدّ من التَّأكيد على أخلاق ومناقب العمل الجمعيِّ، الذي يقتضي الاستعداد للتَّنازل عن الرأي والموقف الخاصِّ لحفظ كيان المؤسَّسة واستمراريتها.

كما أنَّ ما نلحظه من زيادة في حالات الطلاق، والشَّكاوى

الزوجية، يستلزم نشر ثقافة التَّسامح والمرونة في العلاقات الأسرية، وتقديم التنازلات المتبادلة، لتعزيز كيان الأسرة، وحفظه من التفكُّك، وحماية مستقبل الأبناء، وأمن المجتمع.

بناء الحكم الرشيد

ورد عن أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام في خطبة له، قال: «فما راعني إلاّ والنّاس كعرف الضّبع إليّ ينثالون عليّ من كلّ جانب حتّى لقد وطىء الحسنان، و شقّ عطفاي مجتمعين حولي كربيضة الغنم فلمّا نهضت بالأمر نكثت طائفة، و مرقت أخرى، و قسط آخرون»[1].

وصول أمير المؤمنين عليه السلام للحكم كان فرصة عظيمة للأمة، من أجل إرساء تجربة رائدة للحكم الرشيد. الذي ينطلق من قيم الدين، ويترسم مصالح الأمة. وكان عليّ عليه السلام أجدر من يقوم بهذه المهمة؛ لأنّ عليًّا كان أعلم بكتاب الله وسنة رسوله.

من جهة أخرى، كان عليّ في قمة النزاهة والعدالة،

(١) نهج البلاغة، ومن خطبة له عليه السلام المعروفة بالشِّقْشِقِيَّة، رقم (٣).

لا أحد يستطيع أن يشكك ويطعن في نزاهة عليّ بن أبي طالب، وهو الذي يقول: «فَوَاللهِ مَا كَنَزْتُ مِنْ دُنْيَاكُمْ تِبْراً، وَلاَ ادَّخَرْتُ مِنْ غَنَائِمِهَا وَفْراً، وَلاَ أَعْدَدْتُ لِبَالِي ثَوْبِي طِمْراً»[1].

ويقول عليه السلام: «وَلَوْ شِئْتُ لاَهْتَدَيْتُ الطَّرِيقَ، إِلَى مُصَفَّى هذَا الْعَسَلِ، وَلُبَابِ هذَا الْقَمْحِ، وَنَسَائِجِ هذَا الْقَزِّ، وَلكِنْ هَيْهَاتَ أَنْ يَغْلِبَنِي هَوَايَ، وَيَقُودَنِي جَشَعِي إِلَى تَخَيُّرِ الأَطْعِمَةِ ـ وَلَعَلَّ بِالْحِجَازِ أَوِ بِالْـيَمَامَةِ مَنْ لاَطَمَعَ لَهُ فِي الْقُرْصِ، وَلاَ عَهْدَ لَهُ بِالشِّبَعِ»[2]. فهو رجل عارف بتعاليم الدين وقيمه وأحكامه، ونزيه صارم في تطبيق تلك القيم والتعاليم.

ومن ناحية ثالثة، فإن الأوضاع التي تولى فيها الإمام عليه السلام الحكم، كان جمهور الأمة فيها منتفضًا ثائرًا، على ما عاناه من محسوبيات ومشاكل وتمييز في العطاء، وكانت هناك تطلعات عند جمهور الأمة للتغيير، لذلك أقبلوا على مبايعة عليّ عليه السلام. وهذه ميزة لخلافة عليّ وحكمه، حيث كانت نتيجة إرادة جماهيرية شعبية.

التجربة العلوية درس وعبرة

لكن المؤسف أن هذه التجربة لم يتح لها أن تؤتي ثمارها، هذه الفرصة شابتها الأكدار، واعترضتها العوائق والعقبات، لهذا يقول عليه السلام: «فلما نهضت بالأمر، نكثت طائفة، ومرقت أخرى، وقسط آخرون».

(١) نهج البلاغة، ومن كتاب له عليه السلام إلى عثمان بن حنيف الانصاري، رقم ٤٥.
(٢) المصدر نفسه.

وفي نصوص أخرى كان يخاطب أهل العراق، وهو يتحدث بمرارة وألم، عن إجهاض التجربة والمحاولة لتطبيق الحكم الرشيد، يقول عليه السلام: «أَمَّا بَعْدُ يَا أَهْلَ اَلْعِرَاقِ، فَإِنَّمَا أَنْتُمْ كَالْمَرْأَةِ اَلْحَامِلِ، حَمَلَتْ فَلَمَّا أَتَمَّتْ أَمْلَصَتْ، وَمَاتَ قَيِّمُهَا، وَطَالَ تَأَيُّمُهَا، وَوَرِثَهَا أَبْعَدُهَا. أَمَا وَ اَللَّهِ مَا أَتَيْتُكُمُ اِخْتِيَاراً وَ لَكِنْ جِئْتُ إِلَيْكُمْ سَوْقاً»[1].

لماذا أجهضت التجربة وقد كانت الأمة تتطلع إليها؟!

نتحدث حول هذا الأمر، ونحن نجد أن الأمة في مختلف عهودها، وحتى في عصرها الحاضر، تمرّ عليها فرص لبناء حكم رشيد عادل، لكن عقبات وعوائق تجهض هذه المحاولات والفرص، لذلك ينبغي أن ندرس ما حصل لعليّ عليه السلام.

أولًا: فساد النخبة السياسية

في كلّ مجتمع وأمة هناك من يتصدى للشأن السياسي، هذه النخبة السياسية تارة تمتلك الإخلاص لمصلحة الأمة والمجتمع، وتساعد على قيام الحكم الرشيد، وفي بعض الأحيان تكون نخبة فاسدة تهتم بمصالحها ونفوذها، وهذا ما حصل في عهد عليّ عليه السلام، فالذين خالفوا عليًّا ما خالفوه إلا من أجل المطامع والمناصب، حيث لم يجدوا في حكمه فرصة للوصول إلى ما كانوا يطمعون فيه من المناصب والمكاسب.

(١) نهج البلاغة، من كلام له عليه السلام في ذم أهل العراق، خطبة رقم ٧٠.

ثانيًا: ضعف وعي الجمهور

حينما لا يكون الجمهور ناضج الوعي، فإنه يتبع القيادات والزعامات على أساس قبلي طائفي فئوي، ويكون سريع التأثر انفعاليًّا عاطفيًّا، هنا تكون الفرصة سانحة للمغرضين والمصلحيين للتلاعب بمصير الأمة.

ثالثًا: المزايدة الدينية

من كان يتصور أنه مع وجود أمير المؤمنين علي عليه السلام أفضل شخصية بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، تخرج فئة تزايد على تدين عليّ عليه السلام، وهم الخوارج. الذين كانوا يعتبرون أنفسهم أكثر تديّنًا وحرصًا على الدين من عليّ بن أبي طالب! وأثاروا الإرباك والخلاف في ساحة الأمة، وكانوا سببًا في إجهاض التجربة والفرصة.

رابعًا: التآمر وإفساد الذمم

يتحدث التاريخ أن معاوية كان يقوم بدور في إفساد الأمور داخل جيش عليٍّ ومجتمعه في العراق، وهذا الدور يتكرر في كل عصر، حيث يقوم الأعداء بمحاولات الاختراق في أوساط الشعوب والمجتمعات، لإضعافها واخضاعها.

إنه لمن المهم جدًا أن تُدرس تلك التجربة التاريخية العلوية، وأن تُعرف العوائق والعقبات التي أدّت لإجهاضها، حتى تستفيد منها الشعوب درسًا، وتأخذ منها وعيًا في بناء حاضرها المعاصر.

الإمام علي عليه السلام ومعاناته الاجتماعية

لماذا لم تلتف الأمة حول الإمام علي عليه السلام! أكانت مكانته مجهولة؟ أما كان الصحابة يرون ويعرفون مكانة علي عليه السلام عند رسول الله صلى الله عليه وآله؟ أما سمعوا تلك الأحاديث في حق علي عليه السلام؟ أما كانوا يرون كفاءته وعلمه، وشجاعته، وكل ما تميز به؟ لماذا لم يلتفوا حوله بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله ولا حتى حين آلت إليه الخلافة؟ فحين بويع بالخلافة لم يكن الالتفاف حوله بالشكل المطلوب، كانت هناك حالة مؤلمة من التمزق والتمرد حتى قال عليه السلام: «فَلَمَّا نَهَضْتُ بِالْأَمْرِ نَكَثَتْ طَائِفَةٌ وَمَرَقَتْ أُخْرَى وَقَسَطَ آخَرُونَ»[1].

وحول الأوضاع التي عاشها أمير المؤمنين عليه السلام بعد أن آلت إليه الخلافة، يقول الأديب طه حسين: «كان علي لا يسدّ ثغرة إلاَّ فتحت له ثغرة أخرى، وأصحابه على رغم ذلك مُمعنون في العجز، مغرقون فيما أحبّوا من العافية، قد فُلّ حدُّهم، وكُسِرت شوكتهم، وطمع فيهم العدو البعيد منهم، وأغرى بهم العدو المقيم بين أظهرهم»[2].

يتعجب الإنسان حين يقرأ تاريخ أمير المؤمنين، ويتألم لسوء التعامل معه، وهو صاحب المنزلة العظيمة عند الله ورسوله، لقد انفلتوا من تحت إمرته فلم تبق إلا الكوفة حتى قال عليه السلام: « مَا هِيَ

(١) نهج البلاغة، الخطبة الشقشقية، خطبة رقم ٣.

(٢) طه حسين، الفتنة الكبرى٢، علي وبنوه، الطبعة الحادية عشر، (القاهرة: دار المعارف)، ص١٤٠.

إِلَّا الْكُوفَةُ أَقْبِضُهَا وَ أَبْسُطُهَا إِنْ لَمْ تَكُونِي إِلَّا أَنْتِ تَهُبُّ أَعَاصِيرُكِ فَقَبَّحَكِ اللَّهُ»[1] مناطق كبيرة كالشام، ومصر واليمن، ومناطق مختلفة غلب عليها المتمردون، حتى الكوفة أغار عليها أبو مريم في جيش من الموالي المرتزقة، ودنا منها، فأرسل الإمام جنودًا لحربه فهزمهم المتمردون فاضطر الإمام أن يخرج بنفسه.

لماذا حصل كل ذلك في عهده، هل كان عنده نقص في قدراته الإدارية والقيادية؟

كلا، وألف كلا، أحاديث رسول الله ﷺ، وتاريخ عليّ المشرق، كلها تشهد على مكانته ومقامه السامي، ولكن من يدرس تاريخ علي عليه السلام بموضوعية، يجد أن الظروف الخارجية لم تكن مساعدة، وذلك لعدة أسباب، من أهمها: الالتزام المبدئي عند أمير المؤمنين عليه السلام، فمن يساير الناس يجد مؤيدين، أما إذا التزم الحق الذي لا يقوى على تطبيقه من حوله، فقد لا يجد من يلتف حوله.

أشاروا عليه عليه السلام أن يلتزم ما كان عليه من قبله، وأن يبقي معاوية على ولاية الشام، وأن يُرضي طلحة والزبير حتى يأمن تمردهما، لكنه رفض طريق المداهنة والمساومة على الحق والعدل وقال: «وَاللَّهِ مَا مُعَاوِيَةُ بِأَدْهَى مِنِّي وَلَكِنَّهُ يَغْدِرُ وَيَفْجُرُ وَلَوْ لَا كَرَاهِيَةُ الْغَدْرِ لَكُنْتُ مِنْ

(١) نهج البلاغة، خطبة٢٥.

أَدْهَى النَّاسِ»[1] وقال: «أَتَأْمُرُونِّي أَنْ أَطْلُبَ النَّصْرَ بِالْجَوْرِ»[2].

ما كان في إدارته نقص، لكن الاتجاه المصلحي السائد، ورفضه لهذا النهج كان سبباً رئيساً لعدم التفافهم حوله. وكان ذلك ابتلاء عظيم من الله عز وجل. يقول عليه السلام: «ما زلت مظلومًا منذ قبض رسول الله»[3].

وعلي عليه السلام ما كان يتوقع حسب المعايير المنطقية، أن الأمة سوف تتعامل معه بهذا الشكل، يقول عليه السلام: «فَلَمَّا مَضَى ﷺ تَنَازَعَ الْمُسْلِمُونَ الْأَمْرَ مِنْ بَعْدِهِ فَوَاللَّهِ مَا كَانَ يُلْقَى فِي رُوعِي وَ لَا يَخْطُرُ بِبَالِي أَنَّ الْعَرَبَ تُزْعِجُ هَذَا الْأَمْرَ مِنْ بَعْدِهِ ﷺ عَنْ أَهْلِ بَيْتِهِ وَ لَا أَنَّهُمْ مُنَحُّوهُ عَنِّي مِنْ بَعْدِهِ فَمَا رَاعَنِي إِلَّا انْثِيَالُ النَّاسِ عَلَى فُلَانٍ يُبَايِعُونَهُ فَأَمْسَكْتُ يَدِي حَتَّى رَأَيْتُ رَاجِعَةَ النَّاسِ قَدْ رَجَعَتْ عَنِ الْإِسْلَامِ يَدْعُونَ إِلَى مَحْقِ دَيْنِ مُحَمَّدٍ ﷺ فَخَشِيتُ إِنْ لَمْ أَنْصُرِ الْإِسْلَامَ وَ أَهْلَهُ أَنْ أَرَى فِيهِ ثَلْماً أَوْ هَدْماً تَكُونُ الْمُصِيبَةُ بِهِ عَلَيَّ أَعْظَمَ مِنْ فَوْتِ وِلَايَتِكُمُ الَّتِي إِنَّمَا هِيَ مَتَاعُ أَيَّامٍ قَلَائِلَ[4]».

درس في المبدئية

علي عليه السلام يعطي لكل المصلحين درسًا عظيمًا، ألا يتخلوا عن مبادئهم رغبة في التفاف الناس حولهم. اتباع الناس فيما يريدون،

(١) نهج البلاغة، من كلام له عن معاوية، خطبة ٢٠٠.
(٢) المصدر نفسه، خطبة ١٢٦.
(٣) الشيخ الطوسي، الأمالي. ص٧٢٦.
(٤) نهج البلاغة، كتاب ٦٢.

ومخالفة المبادئ والقيم الربانية، غير صحيح، ولا يعطينا عذرًا أمام الله عزّ وجلّ يوم القيامة. الإمام ثبت على نهجه المبدئي فانفض الناس عنه، وسبوه على المنابر عشرات السنين، لكن ذلك لم يقلل من شأنه، لا في نفسه، ولا عند ربه عز وجل، فما كان يهتم لذلك، قال عليه السلام: «لَا يَزِيدُنِي كَثْرَةُ النَّاسِ حَوْلِي عِزَّةً وَلَا تَفَرُّقُهُمْ عَنِّي وَحْشَةً».

فعلينا أن نتعلم درس الثبات على الحق من إمام الحق أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، وهو يدعو محبيه وتابعيه إلى أن يأنسوا بالتزام نهج الحق، ولا يستوحشوا لقلة السائرين في طريقه، يقول عليه السلام: «لاَ تَسْتَوْحِشُوا فِي طَرِيقِ الْهُدَى لِقِلَّةِ أَهْلِهِ»[1].

(١) نهج البلاغة، الخطبة ٢٠١.

صبر بلا حدود

يحتوي تراث عليّ بن أبي طالب عليه السلام ثراءً كبيرًا في المسألة الأخلاقيّة، لا نظير له في تراث عموم القادة الدينيّين والاجتماعيّين؛ حيث تحدّث كثيرًا عن أهميّة الأخلاق، ودورها في حياة الفرد والمجتمع، وتناول أغلب مفردات الصفات الأخلاقيّة، في جانبيّ الفضائل والرذائل، على أنّ ما وصل إلينا ليس إلّا جزءًا ممّا قاله عليه السلام، وهناك الكثير من تراثه الذي لم يصل، ومع هذا نجد ثراءً منقطع النظير في هذا التراث المنقول.

مفردة الصبر في تراث علي

احتلت «مفردة الصبر» حيّزًا واسعًا في تراثه عليه السلام، على أنّ من الضروري التنويه إلى تكامل النظريّة مع التطبيق في التراث الأخلاقيّ له عليه السلام؛ إذ نلاحظ كلامًا مع سيرة عمليّة مارسها عليه السلام.

وقد تحدّث عن مفردة الصبر في عشرات من الكلمات والنصوص؛ وطرح موضوع أساس الصبر وجذره في شخصيّة الإنسان، حيث لخّصه بالكلمة التالية: «أَصْلُ الصَّبْرِ حُسْنُ الْيَقِينِ بِاللَّه»[1].

فمن يمتلك يقينًا بأنّ الله لا يفعل به إلّا الخير والصلاح، سواء أدرك المصلحة أم لم يدركها، مثل هذا الإنسان يمتلك أرضيّة كاملة لملكة الصبر.

والصبر في رأي عليّ عليه السلام لا يعني الخنوع، وإنما هو الإرادة القويّة، من هنا نجده يقرّر أنّ: «الصَّبْرُ شَجَاعَة»[2]، قد يكون شجاعة المواجهة للمشكلة، أو شجاعة تحمّل المشكلة والتكيّف معها.

إنّ الصبر عند عليّ عليه السلام وسيلة لتجاوز المشاكل وليس للخنوع لها، من هنا قال عليه السلام: «الصَّبْرُ عَوْنٌ عَلَى كُلِّ أَمْر»[3].

وقال عليه السلام: «وَمَنْ رَكِبَ مَرْكَبَ الصَّبْرِ اهْتَدَى إِلَى مِضْمَارِ النَّصْر»[4].

إنّ كلّ مشكلة تمرّ بالإنسان سوف تنتهي وتنقضي، سواء في العاجل أم الآجل، وعليه أن يتجاوزها بأقلّ قدر من الخسائر، يقول عليه السلام:

«إِنَّ لِلنَّكَبَاتِ غَايَاتٍ لَا بُدَّ أَنْ تَنْتَهِيَ إِلَيْهَا، فَإِذَا حُكِمَ عَلَى أَحَدِكُمْ

(١) غرر الحكم ودرر الكلم، ص١١٠، حكمة٢٠٧.
(٢) نهج البلاغة، ص٤٩٦.
(٣) غرر الحكم ودرر الكلم، ص٤٠، حكمة ١٠٨٣.
(٤) بحار الأنوار، ج٧٥، ص٧٩.

بِهَا فَلْيُطَأْطِئْ لَهَا وَيَصْبِرْ حَتَّى تَجُوزَ...»[1].

فالصبر يساعد الإنسان الذي حلّت به النكبات على تخفيف تداعياتها، فـ «بِالصَّبْرِ تَخِفُّ الْمِحْنَة»[2] كما يعبّر عليه السلام في كلمة أخرى بقوله: «اَلصَّبْرُ يُهَوِّنُ اَلْفَجِيعَةَ»[3].

حقيقة الصبر

لكن علينا أن نعرف معنى الصبر في كلمات الإمام عليه السلام

يجيب الإمام بذكر وصفين أساسيّن لهذه المفردة، قال عليه السلام: «الصَّبْرُ أَنْ يَحْتَمِلَ الرَّجُلُ مَا يَنُوبُهُ وَيَكْظِمَ مَا يُغْضِبُهُ»[4].

ولا شكّ أن المقصود من الرجل في هذا النصّ هو الإنسان ذكراً وأنثى، ومرام هذا الحديث هو الإشارة إلى ضرورة أن يتحمّل الإنسان النوائب التي تلمّ به، كشرط لوصفه بالإنسان الصبور، وليس هذا فحسب، بل عليه ألّا ينفعل مع الشيء الذي يغضبه كردّ فعل وممارسة خارجيّة.

أقسام الصبر وأنحاؤه

إنّ الصبر عند عليّ عليه السلام على أنحاء حيث ورد عنه عليه السلام: «الصَّبرُ: إمّا

(١) تحف العقول، ص٢٠١.
(٢) غرر الحكم ودرر الكلم، ص١٦٥، حكمة ٧٢.
(٣) غرر الحكم ودرر الكلم، ص٤٠، حكمة ١٠٩٣.
(٤) غرر الحكم ودرر الكلم، ص٣٩، حكمة ١٠٥٩.

صَبرٌ على المُصيبَةِ، أو على الطاعَةِ، أو عنِ المَعصيَةِ، و هذا القِسمُ الثالثُ أعلى دَرجَةً مِنَ القِسمَينِ الأوَّلَينِ»[1].

لكن يبقى السؤال عن فاعليّة وفعليّة الصبر عند الإنسان، هل هو حالة تكوينية، أو مزاجيّة لا ترتبط بالمقوّمات والاستعدادات التي يهيؤها الإنسان في نفسه، أم أنّ الفضائل الأخلاقيّة ـ ومنها الصبر ـ أمور كسبيّة؟

أجاب الإمام عليه السلام في كثير من النصوص بأنّ الأخلاق أمر كسبيّ، يمكن للإنسان أن يكتسبها ويتدرّب عليها، فقد قال عليه السلام: «عَوِّدْ نَفْسَكَ الصَّبْرَ»[2].

وعنه عليه السلام: «عَوِّدْ نَفْسَكَ التَّصَبُّرَ عَلَى الْمَكْرُوهِ؛ ونِعْمَ الْخُلُقُ التَّصَبُّرُ»[3].

وعنه عليه السلام: «أَفْضَلُ الصَّبْرِ التَّصَبُّرُ»[4].

فعلى الإنسان أن يعيش حالة التصبّر، وإن كان يعيش مرارة الألم والمضض؛ فهذا من أفضل أنواع الصبر؛ لأنه يُعزّز هذه الملكة والخلق في نفسه.

(١) ابن أبي الحديد، شرح النهج، ج١، ص ٣١٩.
(٢) وسائل الشيعة، ج ١٥، ص ٢٦٣، حديث ٢٠٤٥٦.
(٣) نهج البلاغة، كتاب٣١.
(٤) غرر الحكم ودرر الكلم، ص١١٤، حكمة٣٥٥.

الصبر الاجتماعيّ حالة متألقة

هناك صبر يرتبط بالشأن الذاتي والشخصيّ كما في حال المرض والخسارة المالية، والمشاكل التي ترتبط بذات الإنسان؛ وهناك صبر أهمّ هو الصبر الاجتماعيّ، بأن يتحلّى الإنسان بالصبر في علاقاته مع الآخرين، وهذا هو الامتحان الكبير الذي وضعه الله سبحانه وتعالى أمام الإنسان في هذه الحياة، كما أشارت لذلك الآية الكريمة: ﴿وَجَعَلْنا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَ تَصْبِرُونَ وَكانَ رَبُّكَ بَصِيراً﴾[سورة الفرقان، الآية: ٢٠].

فالامتحان الحقيقيّ الذي يمرّ بالإنسان هو في علاقاته مع زوجه وأبنائه ووالديه وجيرانه، ومن يحيط به في مختلف دوائر الحياة، والمؤسف أنّ بعض الناس لا يملكون صبرًا في علاقاتهم الاجتماعيّة؛ فحينما يواجهون مشكلة في علاقاتهم الأسريّة، تراهم لا يصبرون، ولا يتحمّلون المشكلة، حتى وإن كانت طفيفة، وكذا مع جيرانهم والمحيطين بهم، لذلك جاءت النصوص من أجل تأكيد أهميّة الصبر في مجال العلاقات الاجتماعيّة.

ومن باب المثال نلاحظ العلاقات الأسريّة بين الزوج وزوجه، فإنّ الإنسان يحتاج فيها إلى مستوى من الصبر، بحيث يتمكّن خلاله من استيعاب بعض المشاكل من شريكه الآخر؛ فالزوجة في نهاية المطاف بشر ينتابه ظروف ومزاج وحالات مختلفة، ولا تمتلك مواصفات حسب الطلب والمقاييس التي يطلبها الزوج، كأيّ سلعة

توفّرها الأسواق، بل إنّ الزوجة التي تتوفّر وفقًا للطلب والمواصفات الخاصّة، قد لا تستمر بمواصفاتها، وذلك لتغيّر مزاج الزوج نفسه في بعض الأحيان، تبعًا لظروف الحياة.

والأمر كذلك بالنسبة للزوج فهو إنسان له ظروفه ومزاجه، وعلى المرأة أن تستوعب بعض الأحداث التي تحصل في هذا السياق، وتضعها في موضعها المناسب، من هنا وردت نصوص حول الصبر في العلاقة بين الزوجين، ورد عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «مَنْ صَبَرَ عَلَى سُوءِ خُلُقِ امْرَأَتِهِ أَعْطَاهُ اللَّهُ مِنَ الْأَجْرِ مَا أَعْطَى أَيُّوبَ عليه السلام عَلَى بَلَائِهِ؛ وَمَنْ صَبَرَتْ عَلَى سُوءِ خُلُقِ زَوْجِهَا أَعْطَاهَا اللَّهُ مِثْلَ ثَوَابِ آسِيَةَ بِنْتِ مُزَاحِم»[1].

والأمر كذلك بالنسبة إلى الجار؛ فعلى الإنسان أن يصبر في العلاقة معه، كما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام: «لَيْسَ حُسْنُ الْجِوَارِ كَفَّ الْأَذى، وَلكِنَّ حُسْنَ الْجِوَارِ صَبْرُكَ عَلَى الْأَذى»[2].

إنّ الصبر في العلاقات الاجتماعيّة مهمٌّ جدًّا، وخاصة لمن يعمل في الشأن الاجتماعيّ؛ حيث يوجد في كلّ مجتمع أناس متطوعون في الميدان الاجتماعيّ، على اختلاف مجالاته، من دينيّ وثقافيّ وخيريّ وسياسي، ومن يعمل في هذا الميدان يحتاج إلى دروع من الصبر والتحمّل؛ لأنّ المجتمع الذي يتعامل معه فيه طبقات مختلفة،

(١) الطبرسي، مكارم الأخلاق، ص٢١٣ـ٢١٤.
(٢) الكافي، ج٢، ص ٦٦٧، حديث٩.

من جهلة ومخادعين وطامعين وحاسدين ومخالفين في الرأي، وعلى الإنسان الذي يشتغل في هذا الميدان أن يتحلّى بالصبر.

والملاحظ أنّ بعض من يدخل هذا الميدان بروح مندفعة، لا يلبث أن ينكفئ على نفسه ويتراجع، بمجرد أن تطرأ أمامه مشكلة في الطريق؛ لعدم امتلاكه ثقة في نفسه، ولقلة صبره وتحمله.

إن الانكفاء والانزواء من العمل الاجتماعيّ ليس فخرًا، فهو في متناول الجميع، بل الفخر هو القيام بالدور والمسؤوليّة الاجتماعيّة، والتحمّل في مواجهة الصعوبات، والصبر عليها.

الصبر العلويّ نظريّة وتطبيق

حينما يقرأ الإنسان سيرة عليّ عليه السلام، يشعر بمدى المضاضة والألم والعناء الذي تحمّله أمير المؤمنين عليه السلام في الصبر على المجتمع المحيط به، فلم نقرأ في سيرته عليه السلام صدور أي أذى منه، أو إساءة بحقّ أحدٍ، بل كان ديدنه خدمة الناس ونفعهم، وهو الذي أشاد الدين، وبنى كيان المجتمع الإسلامي مع نبي الرحمة صلى الله عليه وآله، هذا المجتمع الذي ضحّى عليّ من أجل أن يقوم كيانه، لم يجازه سوى الألم وغصّات المعاناة.

قال عليه السلام في إحدى كلماته: «فَصَبَرْتُ وَفِي الْعَيْنِ قَذًى وَفِي الْحَلْقِ شَجًا»[1].

وفي كلمة أخرى له عليه السلام: «فَأَغْضَيْتُ عَلَى الْقَذَى وَجَرِعْتُ رِيقِي

(١) نهج البلاغة، خطبة ٣.

عَلَى الشَّجَا وَصَبَرْتُ مِنْ كَظْمِ الْغَيْظِ عَلَى أَمَرَّ مِنَ الْعَلْقَمِ وَآلَمَ لِلْقَلْبِ مِنْ وَخْزِ الشِّفَار»[1].

لقد كان عليٌّ مهيّأً لهذا العناء، ولم يكن متفاجئًا مما حدث وحصل له، ولم يُصدم بالطريقة التي واجهها به المجتمع من نكران الجميل، بل كان عليٌّ ملمًّا بهذه النتيجة من أول الأمر، حيث أخبره رسول الله ﷺ بما سيواجهه من عناء ومشكلات، كقوله ﷺ له ذات مرة: «إنَّ الأُمَّةَ سَتَغدِرُ بِكَ بعدي، وأنتَ تَعيشُ عَلى مِلَّتي، وتَقتُلُ عَلى سُنَّتي. مَن أحَبَّكَ أحَبَّني، ومَن أبغَضَكَ أبغَضَني. وإنَّ هذِهِ سَتُخضَبُ مِن هذا ـ يَعني لِحيَتَهُ مِن رَأسِهِ ـ »[2].

ورَوَى سَدِيرٌ الصَّيْرَفِيُّ عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ عليه السلام قَالَ: «اشْتَكَى عَلِيٌّ شِكَايَةً فَعَادَهُ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ، وَخَرَجَا مِنْ عِنْدِهِ فَأَتَيَا النَّبِيَّ ﷺ فَسَأَلَهُمَا: مِنْ أَيْنَ جِئْتُمَا؟

قَالا: عُدْنَا عَلِيًّا.

قَالَ: كَيْفَ رَأَيْتُمَاهُ؟

قَالا: رَأَيْنَاهُ يُخافُ عَلَيهِ مِمَا بِهِ.

فَقَالَ: كَلَّا! إِنَّهُ لَنْ يَمُوتَ حَتَّى يُوَسَّعَ غَدْراً وَبَغْياً، وَلَيَكُونَنَّ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ عِبْرَةً يَعْتَبِرُ بِهِ النَّاسُ مِنْ بَعْدِه»[3].

(١) نهج البلاغة، خطبة ٢١٧.
(٢) المستدرك على الصحيحين، ج ٣، ص ١٥٣، حديث ٤٦٨٦.
(٣) ابن أبي الحديد شرح نهج البلاغة: ج٤، ص١٠٦.

فقد أراده الله تعالى قدوة ونموذجًا في تحمّل المشاكل والألم في ميدان العمل الاجتماعي (عبرة يعتبر به الناس)، وفي رواية عن أنس بن مالك: «خرجنا مع رسول الله ﷺ فمرّ بحديقة، فقال عليّ عليه السلام: ما أحسن هذه الحديقة! قال: حديقتك فى الجنّة أحسن منها. حتى مرّ بسبع حدائق، كلّ ذلك يقول عليّ: يا رسول الله، ما أحسن هذه الحديقة، فيردّ عليه النبيّ ﷺ: حديقتك في الجنّة أحسن منها.

ثمّ وضع النبيّ ﷺ رأسه على إحدى منكبي عليٍّ فبكى، فقال له عليّ: ما يُبكيك يا رسول الله؟ قال: ضغائن في صدور أقوام لا يُبدونها لك حتى أفارق الدنيا.

قال عليّ عليه السلام: فما أصنع يا رسول الله؟ قال: تصبر. قال: فإن لم أستطِع؟ قال: تلقى جميلًا. قال: ويسلم لي ديني؟ قال: ويسلم لك دينك»[1].

من هنا على من يعمل في الميدان الاجتماعيّ، أن يقرأ معاناة عليّ بن أبي طالب عليه السلام حينما تواجهه الصعوبات والمشاكل، ليرى طبيعة المعاناة التي واجهها هذا الإمام عليه السلام حتى قال: «لَقَدْ ظُلِمْتُ عَدَدَ الْحَجَرِ وَالْمَدَرِ»[2].

وعنه عليه السلام: «مَا لَقِيَ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ مَا لَقِيتُ»[3].

(١) تاريخ دمشق، ج٤٢، ص٣٢٣، حديث٨٨٨٢.
(٢) المفيد، الجمل والنصرة لسيد العترة في حرب البصرة، ص١٢٤.
(٣) بحار الأنوار، ج٣٤، ص٦٣.

فقد واجه ما واجه حتى وهو في موقع الخلافة والحكم، وقد كشف عن هذا الأمر في خطبة له عليه السلام ذكرها الشريف الرضي في نهج البلاغة جاء فيها: «وَلَقَدْ أَصْبَحَتِ الْأُمَمُ تَخَافُ ظُلْمَ رُعَاتِهَا، وَأَصْبَحْتُ أَخَافُ ظُلْمَ رَعِيَّتِي...»[1].

إنّ كلمات عليّ هذه تؤلم وتُدمي القلب، حتى نراه من شدّة معاناته يقف ليسجل سطورًا مليئة بالحسرة والألم والخيبة، مما عاناه من المحيطين به فمن خطبة له عليه السلام قالها يستنهض به الناس، حين ورد خبر غزو الأنبار، بجيش معاوية، فلم ينهضوا، قال عليه السلام: «لَوَدِدْتُ أَنِّي لَمْ أَرَكُمْ وَلَمْ أَعْرِفْكُمْ مَعْرِفَةً وَاللَّهِ جَرَّتْ نَدَماً وَأَعْقَبَتْ سَدَماً، قَاتَلَكُمُ اللَّهُ لَقَدْ مَلَأْتُمْ قَلْبِي قَيْحًا وَشَحَنْتُمْ صَدْرِي غَيْظًا وَجَرَّعْتُمُونِي نُغَبَ التَّهْمَامِ أَنْفَاسًا، وَأَفْسَدْتُمْ عَلَيَّ رَأْيِي بِالْعِصْيَانِ وَالْخِذْلَانِ...»[2].

وهكذا حتى كتب الله له الشهادة في محراب صلاته، على يد شخص طالما غمره عليّ عليه السلام بإحسانه ولطفه، واستمر في إبداء الشفقة عليه حتى بعد جريمته وعدوانه، حيث كان عليّ عليه السلام على فراش مرضه يوصي أبناءه بالإحسان إلى قاتله عبد الرحمن بن ملجم «أطعموه من طعامي، واسقوه من شرابي، فإن أنا عشتُ رأيت فيه رأيي، وإن أنا متّ فاضربوه ضربة لا تزيدوه عليها»[3].

(١) نهج البلاغة، خطبة ٩٧.
(٢) المصدر نفسه، خطبة ٢٧.
(٣) المناقب للخوارزمي، ص ٣٨٨/ ٤٠٣.

الفصل الثالث

القائد الإنسان

في إدارة الصراع

هناك سببان مهمان يدعوان لبحث هذا الموضوع:

الأول: أن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام ابتلي في حياته - وبخاصّة في عهد خلافته - بالصراعات والخلافات مع خصومه، فرغم قصر المدّة التي قضاها في الحكم (خمس سنوات تقريبًا) إلا أن الفتن والصراعات في تلك المدّة الزمنية المحدودة كانت كثيرة وعديدة، وقد واجهها أمير المؤمنين عليه السلام بصبر وثبات وحكمة وأخلاق.

لذلك تأتي دراسة أخلاق إدارة الصراع لتسليط الضوء على جانب مهم من فكر وسيرة الإمام علي عليه السلام.

الثاني: أن ظاهرة الصراعات لا يخلو منها مجتمع، وقلَّما يستطيع تجنّبها فرد من الأفراد أو فئة من الفئات. لكنّها قد تكون في بعض الأوقات أكثر، وفي بعض المجتمعات بصورة أكثف.

ويبدو أن المرحلة الحاضرة التي نعيشها هي مرحلة انبعاث وتحول في مجتمعاتنا، وعادة ما يصاحب ذلك حالة من الصراع والاختلاف، فينبغي أن يكون هناك هدي وبصيرة للتعاطي مع مثل هذه المشكلة.

أسباب الصراعات والاختلافات

الصراعات والخلافات تنبعث غالبًا من أحد أسباب أربعة:

١. الاختلاف في الرأي والتوجّه الفكري

حيث لا تتفق الآراء في أي مجتمع من المجتمعات، ولا يتفق توجّه جميع المجتمعات والشعوب في اتجاه ورأي واحد، فالاختلاف سنّة إلهية في الخلق.

يقول تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾[سورة هود، الآيات: ١١٨-١١٩].

وربما تكون حالة الاختلاف في الرأي أو الموقف سببًا في وقوع عدد من الصراعات، بين الأفراد أو بين المجتمعات، بحيث تدفع هذه الاختلافات نحو الصراع، خاصّة حينما يريد البعض الانتصار لرأيه

بأسلوب صدامي، فيتحول الاختلاف أداة من أدوات التصارع والنزاع.

٢. تضارب المصالح والمكاسب

غالبًا ما يكون تضارب المصالح والتنازع على المكاسب هو الدافع الأبرز لنشوء حالة الصراع، فأغلب الصراعات في المجتمعات البشرية هي صراعات على المصالح والمكاسب، سواء كانت هذه المصالح سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية، كما أنها في هذا الصراع قد تأخذ عناوين أخرى، وترفع شعارات برّاقة، لكنها في جوهرها صراعات على المصالح أو المكاسب.

٣. الحالة المزاجية وأسلوب التعامل

في بعض الأحيان لا يكون هناك اختلاف في الرأي، أو صراع من أجل المصلحة، لكن سوء أخلاق التعامل يحدث صراعات وخلافات شخصية، وهذا ما نجده في معظم الخلافات الزوجية، وبين الجيران، وبين الناس عمومًا في تعاملهم مع بعضهم بعضًا، فقد تخرج بعض الكلمات أو التعبيرات الجارحة، أو يصدر تصرف غير مناسب، وسرعان ما يولّد حالة من الانفعال والغضب، تصل في بعض حالاتها إلى خلاف محتدم، وذلك بسبب هذه الحالة المزاجية أو سوء الأخلاق.

٤. التدخل السلبي للأطراف الأخرى

قد تنشب بعض الصراعات بسبب وجود طرف ثالث يدفع باتجاه

الاختلاف والصراع بين شخصين أو فئتين، ففي بعض الحالات قد لا يكون هناك مبرر كافٍ لبروز حالة الصراع، لكن تدّخل طرف آخر في أمر العلاقة بين طرفين، قد يدفع باتجاه هذا النوع من الخلاف، وحالات التصارع والنزاع.

وحينما نقرأ نهج البلاغة، نرى أن مساحة واسعة مما ورد فيه، هو لمعالجة مشكلة الصراع وأساليب التعامل معها.

وقد وجدتُ فيه عناوين كثيرة، يمكن استنطاقها للحديث حول هذه المشكلة، أستعرض هنا بعضًا منها:

التوجيه إلى تجنّب الصراع

في نهج البلاغة توجيهات كثيرة، حول تجنُّب الدخول في أي صراع أو خلاف، ما استطاع الإنسان إلى ذلك سبيلًا، لأن الصراع والخلاف ليس أمرًا ممتعًا مريحًا، بل هو عبء على نفس الإنسان، يستهلك جهده وطاقاته، ويجعله يعيش حالة من الألم والضيق النفسي، كما أنه يبدّد طاقات المجتمع، ويسبّب حالة من الفرقة والشقاق بين مجموعاته وأفراده، من هذا المنطلق ينبغي للإنسان العاقل أن يتحلّى بالحرص على تجنّب أي صراع ما أمكنه ذلك، فلا يبادر بالخصومة مع الآخرين، ولا يكون سببًا في وقوع خصومة أو عداوة بينه وبين أي طرف، بل يحاول إيجاد المخارج والحلول، لا أن يقع فريسة الاستفزاز والاستدراج التي يمارسها البعض، لإحداث الفتن والنزاعات داخل

المجتمع، ليكون هو المستفيد منها.

على الواعين من أبناء المجتمع أن يمتلكوا الوعي لمثل هذه المؤامرات والاستفزازات، لأن الصراع والخصومة نفق إذا دخلت فيه فئة من الفئات لا تعلم متى وبأي كيفية ونتائج ستخرج.

ومن هذه التوجيهات في نهج البلاغة، ما ورد بشأن اتصاف الإنسان بالحلم، في مواجهة حالة الانفعال من تصرفات الطرف الآخر، فهناك تأكيد من الإمام عليه السلام على صفة الحِلم، في مقابل ما يتعرّض له الإنسان من استفزازات، إذا استجاب لها برزت عوامل الصراع والخصومة، بينما إذا اعتصم بالحلم، سَلِمَ من الوقوع في ذلك الفخ.

يقول عليه السلام: «اكْظِمِ الْغَيْظَ، وتَجَاوَزْ عِنْدَ الْمَقْدَرَةِ، واحْلُمْ عِنْدَ الْغَضَبِ، واصْفَحْ مَعَ الدَّوْلَةِ، تَكُنْ لَكَ الْعَاقِبَةُ»[1].

وفي كلمة بليغة له حول الخصومة، يقول عليه السلام: «الْحِلْمُ فِدَامُ السَّفِيهِ»[2].

والفدام لغة: رباط الفم.

وهذه كلمة جميلة، يعبّر فيها الإمام علي عليه السلام عن الحالة التي تصيب السفيه عندما يحاول استفزاز شخص، فلا يستجيب لاستفزازه، وكأنه أخرسه، لأن الحليم عندما لا يستجيب لاستفزاز السفيه كأنه ربط لسانه.

(١) نهج البلاغة. من كتاب له إلى الحارث الهمذاني.
(٢) المصدر نفسه. من قصار كلمه.

ولأن البعض قد يعتذر عن مسألة الغضب وسرعة الانفعال بحجّة أنه لا يتمالك نفسه، وبأن هذه حالة نفسية لا يستطيع التحكّم فيها، لذلك يوجّه الإمامُ علي عليه السلام الإنسان إلى أن يبذل جهده لأن يتحلّى ببعض الصفات، حتى لو لم تكن من طبعه وسجيته، فينصحه بأن يروّض نفسه على ذلك، حتى يتجاوز الصفة السلبية، ويكتسب الصفة الإيجابية المطلوبة.

يقول عليه السلام: «إِنْ لَمْ تَكُنْ حَلِيماً فَتَحَلَّمْ، فَإِنَّهُ قَلَّ مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ إِلا أَوْشَكَ أَنْ يَكُونَ مِنْهُمْ»(١).

ومن كلامه في مسألة تجنّب الصراع، وصيته لمعقل بن قيس الرياحي، يقول فيها: «ولا تُقَاتِلَنَّ إِلا مَنْ قَاتَلَكَ»(٢).

وجاء في عهده لمالك الأشتر حين أنفذه إلى مصر: «ولا تَدْفَعَنَّ صُلْحاً دَعَاكَ إِلَيْهِ عَدُوُّكَ ولِلَّهِ فِيهِ رِضًا، فَإِنَّ فِي الصُّلْحِ دَعَةً لِجُنُودِكَ، ورَاحَةً مِنْ هُمُومِكَ، وأَمْناً لِبِلادِكَ»، وهي كلمة يطبق فيها الإمام التوجيه القرآني الكريم الوارد في قوله تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾ [سورة الأنفال: الآية ٦١].

فالإمام يوصي مالكًا الأشتر أنه حينما تظهر لدى العدوّ بوادر لوقف القتال، وفرص المصالحة، فعلى قائد المعركة أن يستجيب

(١) نهج البلاغة.

(٢) من وصية له وصى بها معقل بن قيس الرياحي حين أنفذه إلى الشام.

لهذه المبادرة.

ومن كلماته في نهج البلاغة مقولته الشهيرة: «كُنْ فِي الْفِتْنَةِ كَابْنِ اللَّبُونِ لا ظَهْرٌ فَيُرْكَبَ ولا ضَرْعٌ فَيُحْلَبَ»[1].

حيث إن الإمام في هذه الكلمة، يحذر الإنسان من الانجرار إلى الخلافات التي تكون بين أطراف لأجل مصالح لا علاقة له بها.

ويقول عليه السلام: «إِنَّ لِلْخُصُومَةِ قُحَماً»[2]. أي أنها تقحم أصحابها في المهالك والمتالف.

وعنه عليه السلام: «مَنْ بَالَغَ فِي الْخُصُومَةِ أَثِمَ، ومَنْ قَصَّرَ فِيهَا ظُلِمَ، ولا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَتَّقِيَ اللهَ مَنْ خَاصَمَ»[3].

لأن الإنسان إذا بالغ في الخصومة واستعمل قوته لمواجهة خصمه أثم، في تجاوز الحد والعدوان على الخصم، وفي المقابل عندما يستعمل خصمه كامل قوّته، ولا يقابله بما يدفعه عنه يقع عليه الظلم. ثمَّ يحذّر عليه السلام من مسألة الخصومة، لأن من يدخل في خصومة حادّة، يصعب عليه ـ عادة ـ أن يراعي التقوى، والالتزام بالحدود الشرعية، حيث يجد نفسه في حال من الصراع والتنافس مع الطرف الخصم، فيريد أن ينتصر لذاته بأي وسيلة وطريق.

(١) نهج البلاغة، من قصار كلمه في نهج البلاغة.
(٢) المصدر نفسه. من غريب كلامه المحتاج إلى التفسير.
(٣) المصدر نفسه. من قصار كلمه.

حين يُفرض الصراع على الإنسان

في بعض الأحيان يُفْرَض الصراع على الإنسان، ويُضْطَّر إلى الدخول فيه، دفاعًا عن مصلحة مهمة خاصة أو عامة.

وقد واجه الإمام علي عليه السلام هذا النوع من الصراع، فقد خاض في فترة حكمه التي استمرّت لأقل من خمس سنوات، ثلاثة حروب كبيرة (الجمل وصفّين والنهروان).

فالإمام عليه السلام وجد نفسه في موقع المسؤولية، وقد تحدّث في أكثر من مورد بأنه كان مضطرًّا لمثل هذه المواجهة، ومن ذلك عندما أشير عليه بألاَّ يتبع طلحة والزبير، وألاَّ يرصد لهما القتال، فقال عليه السلام: «وَاللهِ لا أَكُونُ كَالضَّبُعِ تَنَامُ عَلَى طُولِ اللَّدْمِ حَتَّى يَصِلَ إِلَيْهَا طَالِبُهَا ويَخْتِلَهَا رَاصِدُهَا ولَكِنِّي أَضْرِبُ بِالْمُقْبِلِ إِلَى الْحَقِّ الْمُدْبِرَ عَنْهُ»[1].

الإمام عليه السلام في هذه الكلمة يبيّن نقطة مهمّة، وهي أن هناك من هو مقبل على الحق، وهناك من هو مدبر عنه معادٍ له، والمسؤولية التي يتحملها الإمام بما يتقلّده من منصب الخلافة والإمامة، أن يواجه هؤلاء المحاربين للحق بأولئك المؤمنين المقبلين على الحقّ.

وفي كلمة أخرى يتحدّث الإمام حول معركة صفّين، وكيف أنه خاض الحرب والصراع مضطرًا دفاعًا عن الدين والأمة، حيث يقول: «وقَدْ قَلَّبْتُ هَذَا الأَمْرَ بَطْنَهُ وظَهْرَهُ حَتَّى مَنَعَنِي النَّوْمَ، فَمَا وَجَدْتُنِي

(١) نهج البلاغة. من كلام له في أنه لا يخدع.

يَسَعُنِي إِلا قِتَالُهُمْ أَوِ الْجُحُودُ بِمَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ، فَكَانَتْ مُعَالَجَةُ الْقِتَالِ أَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ مُعَالَجَةِ الْعِقَابِ، ومَوْتَاتُ الدُّنْيَا أَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ مَوْتَاتِ الآخِرَةِ»[1].

فهو في موقع الإمامة وقيادة الأمة، ولا يستطيع أن يتخلّى عن تحمّل هذه المسؤولية، وما وجد حلاً يسعه إلا قتالهم، أو يخالف ما جاءت به تعاليم الرسالة الإسلامية، فكان قتالهم أهون عليه من مخالفة هذه التعاليم والمبادئ الإلهية.

وقال في مورد آخر مخاطبًا ربه تعالى: «اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنِ الَّذِي كَانَ مِنَّا مُنَافَسَةً فِي سُلْطَانٍ ولا الْتِمَاسَ شَيْءٍ مِنْ فُضُولِ الْحُطَامِ ولَكِنْ لِنَرِدَ الْمَعَالِمَ مِنْ دِينِكَ ونُظْهِرَ الإِصْلاحَ فِي بِلادِكَ فَيَأْمَنَ الْمَظْلُومُونَ مِنْ عِبَادِكَ وتُقَامَ الْمُعَطَّلَةُ مِنْ حُدُودِكَ»[2].

وفي كلمة موجزة حاسمة، يقول عليه السلام: «وإِذَا لَمْ أَجِدْ بُدّاً فَآخِرُ الدَّوَاءِ الْكَيُّ»[3]. وهي كلمة بليغة تبيّن أن مسألة القتال والمواجهة تكون آخر الحلول التي يلجأ إليها، بعد استنفاذ جميع الحلول الأخرى.

(١) نهج البلاغة. من خطبة له وفيها يصف أصحابه بصفين حين طال منعهم له من قتال أهل الشام.
(٢) من كلام له في حال نفسه وأوصاف الإمام مطلقًا وفي الوعظ.
(٣) من كلام له بعد ما بويع له بالخلافة، وقد قال له قوم من الصحابة: «لو عاقبت قومًا ممن أجلب على عثمان».

لم ينشغل بالصراع على الخلافة

تعد مسألة الخلافة من أكثر الموضوعات حساسية في تاريخ الإسلام، تشعبت بسببها المذاهب والمدارس، وحصلت صراعات دامية بسبب الموقف من هذه القضية الحساسة.

وحينما نقرأ نهج البلاغة لنتتبّع موقف الإمام من إثارة هذه المسألة، لا نجدها حاضرة بقوّة، مع أن الإمام عليًّا عليه السلام هو المعني بالموضوع بالدرجة الأولى، لكنه مع ذلك كان يتجاوز إثارته، فما كان يتحدّث حوله، ولا كان يثيره، وحينما كان البعض يثيره فإن الإمام يمرّ به مرورًا سريعًا، ولا يقف عنده طويلاً.

وهنا علينا أن نتساءل عن حالة الحماس التي نجدها عند كثيرين في طرح هذا الموضوع بطريقة مستفزة للأطراف الأخرى، بينما نجد صاحب القضية، وهو الإمام علي عليه السلام ما كان يطرح هذا الموضوع أو يقف عنده بهذه الصورة المبالغ فيها بعض الأحيان.

عندما نراجع ما جمعه الشريف الرضي من خطب وكتب وكلمات الإمام علي عليه السلام في نهج البلاغة، لا نرى الإمام يتطرّق كثيرًا إلى هذه المسألة، إلّا بشكل عام، وبإعطاء الإشارات واللمحات، والخطبة التي تطرّق فيها بشيء من التفصيل لهذه المسألة ـ وهي الخطبة الشقشقية[1] ـ لم تكن إلا في لحظة من لحظات التنفيس، وزفرات الألم العابرة، كما

(١) خطبة رقم ٣.

أشار إلى ذلك بقوله: «تِلْكَ شِقْشِقَةٌ هَدَرَتْ ثُمَّ قَرَّتْ»، فهي لم تكن موضوعًا يشغل بالَ الإمام.

وهي من نوادر الخطب التي تحدّث فيها الإمام عليه السلام عن الخلافة بهذا التفصيل، وهي الخطبة الثالثة في نهج البلاغة، يقول فيها: «أَمَا واللهِ لَقَدْ تَقَمَّصَهَا فُلانٌ وإِنَّهُ لَيَعْلَمُ أَنَّ مَحَلِّي مِنْهَا مَحَلُّ الْقُطْبِ مِنَ الرَّحَى، يَنْحَدِرُ عَنِّي السَّيْلُ، ولا يَرْقَى إِلَيَّ الطَّيْرُ، فَسَدَلْتُ دُونَهَا ثَوْباً، وطَوَيْتُ عَنْهَا كَشْحاً».

إنه قد سدل دون الخلافة ثوبًا، أي أرخاه، وطوى عنها كشحًا، أي مال عنها، وذلك كناية عن غض نظره عنها.

وفي هذه الخطبة يبيّن عليه السلام موقفه من قبول الخلافة بعد طلب الناس منه ذلك بإلحاح وإصرار، وحين تحمّل المسؤولية لم يكن له بُدٌّ من مواجهة الناكثين (أصحاب الجمل)، والقاسطين (معاوية وجيشه)، والمارقين (خوارج النهروان).

هذه المواجهة لم يخضها الإمام عليه السلام تشبثًا منه بالسلطة والخلافة، وإنما دفاعًا عن كيان الدولة ووحدة الأمة، يقول عليه السلام: «أَمَا والَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ وبَرَأَ النَّسَمَةَ لَوْ لا حُضُورُ الْحَاضِرِ وقِيَامُ الْحُجَّةِ بِوُجُودِ النَّاصِرِ ومَا أَخَذَ اللهُ عَلَى الْعُلَمَاءِ ألا يُقَارُّوا عَلَى كِظَّةِ ظَالِمٍ ولا سَغَبِ مَظْلُومٍ لَأَلْقَيْتُ حَبْلَهَا عَلَى غَارِبِهَا ولَسَقَيْتُ آخِرَهَا بِكَأْسِ أَوَّلِهَا ولَأَلْفَيْتُمْ

دُنْيَاكُمْ هَذِهِ أَزْهَدَ عِنْدِي مِنْ عَفْطَةِ عَنْزٍ»[1].

حيث يشير إلى أنه لو لا ما حصل من تدافع الناس عليه وإبدائهم النصرة له، وما أخذ الله على العلماء من واجب لرفع الظلم عن الناس، لألقى حبل الخلافة على غاربها، فهي لا تساوي عنده عفطة عنز.

وقَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ السَّوَادِ (أهل العراق) عِنْدَ بُلُوغِهِ إِلَى هَذَا الْمَوْضِعِ مِنْ خُطْبَتِهِ، فَنَاوَلَهُ كِتَاباً، فَأَقْبَلَ يَنْظُرُ فِيهِ، ثم قَالَ لَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ: «يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، لَوِ اطَّرَدَتْ خُطْبَتُكَ مِنْ حَيْثُ أَفْضَيْتَ؟»، فَقَالَ: «هَيْهَاتَ يَا ابْنَ عَبَّاسٍ، تِلْكَ شِقْشِقَةٌ هَدَرَتْ ثُمَّ قَرَّتْ»، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «فَوَاللهِ مَا أَسَفْتُ عَلَى كَلامٍ قَطُّ كَأَسَفِي عَلَى هَذَا الْكَلامِ أَلا يَكُونَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ بَلَغَ مِنْهُ حَيْثُ أَرَادَ».

فالإمام عليه السلام يشير إلى أن حديثه عن الخلافة كان موضوعًا جانبيًّا، وما تحدّث به كان زفرة من زفرات الألم، وليس من منهجه الإغراق في الحديث عن هذا الموضوع.

وفي كلمة أخرى له عليه السلام يتحدّث فيها عن موضوع الخلافة، وذلك لمّا عزم المسلمون على بيعة عثمان، حيث قال: «لَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنِّي أَحَقُّ النَّاسِ بِهَا مِنْ غَيْرِي، ووَاللهِ لأَسْلِمَنَّ مَا سَلِمَتْ أُمُورُ الْمُسْلِمِينَ ولَمْ يَكُنْ فِيهَا جَوْرٌ إِلا عَلَيَّ خَاصَّةً، الْتِمَاساً لأَجْرِ ذَلِكَ وفَضْلِهِ، وزُهْداً فِيمَا

(١) نهج البلاغة، الخطبة ٣.

تَنَافَسْتُمُوهُ مِنْ زُخْرُفِهِ وزِبْرِجِهِ»[1].

حيث يبين في هذه الكلمة حقّه في الخلافة، ولكنه يعلن عدم إثارته هذا الموضوع، من أجل وحدة الأمة وسلامتها من الفتن والصراعات، متحملًا وقوع الحيف عليه خاصّة.

ومن كلام له عليه السلام لبعض أصحابه، وقد سأله: «كيف دفعكم قومكم عن هذا المقام وأنتم أحق به؟»، فقال عليه السلام: «يَا أَخَا بَنِي أَسَدٍ، إِنَّكَ لَقَلِقُ الْوَضِينِ، تُرْسِلُ فِي غَيْرِ سَدَدٍ، ولَكَ بَعْدُ ذِمَامَةُ الصِّهْرِ وحَقُّ الْمَسْأَلَةِ، وقَدِ اسْتَعْلَمْتَ فَاعْلَمْ: أَمَّا الاسْتِبْدَادُ عَلَيْنَا بِهَذَا الْمَقَامِ، ونَحْنُ الأَعْلَوْنَ نَسَباً والأَشَدُّونَ بِالرَّسُولِ ﷺ نَوْطاً، فَإِنَّهَا كَانَتْ أَثَرَةً شَحَّتْ عَلَيْهَا نُفُوسُ قَوْمٍ، وسَخَتْ عَنْهَا نُفُوسُ آخَرِينَ، والْحَكَمُ اللهُ والْمَعْوَدُ إِلَيْهِ الْقِيَامَةُ، وَدَعْ عَنْكَ نَهْباً صِيحَ فِي حَجَرَاتِهِ ولَكِنْ حَدِيثاً مَا حَدِيثُ الرَّوَاحِلِ وَهَلُمَّ الْخَطْبَ فِي ابْنِ أَبِي سُفْيَانَ»[2].

هذا الموقف من الإمام يستحق كثيرًا من النظر والتأمل، أنه في البدء يردّ بشدة على إثارة السائل لموضوع الخلافة في ذلك الظرف العصيب الذي يواجه فيه الإمام تمردًا خطيرًا يواجه كيان الدولة الإسلامية، وهو تمرّد معاوية، ويصف الإمام من يطرح هذا السؤال بأنه (قَلِقُ الْوَضِينِ، يرْسِلُ فِي غَيْرِ سَدَدٍ) أي: (تقول الكلام بدون استقامة، وقلق الوضين مثال يقال لمن يتكلم اعتباطًا، بدون ترو، ودون مراعاة

(١) نهج البلاغة، ومن خطبة له عليه السلام لما عزموا على بيعة عثمان، خطبة رقم ٧٣.
(٢) المصدر نفسه، ومن كلام له عليه السلام لبعض أصحابه، خطبة رقم ١٦٣.

محل الكلام، وكأن السائل كان سأل هذا الكلام في غير موضعه، ولذا زجره الإمام)[1].

ثم إن الإمام عليه السلام في هذه الكلمة حصر موضوع الخلافة في أنه استئثار واستبداد من فئة بسبب ما اعتقدت أنه مكسب لها، والإمام لم يصارع في السعي للخلافة، تساميًا منه على حطام هذا المنصب، والحساب والمحاكمة بيد الله سبحانه الذي يعود إليه الجميع يوم القيامة.

ثم يلفت الإمام عليه السلام السائل إلى نقطة في غاية الأهمية، وهي ما كان المفترض أن يهتمّ به، وهو الخطر الحاضر والمتمثل في المواجهة مع معاوية، «وَهَلُمَّ الْخَطْبَ فِي ابْنِ أَبِي سُفْيَانَ»، لا أن يشغل باله بحدث تاريخي قد انقضى قبل أكثر من ثلاثين عامًا.

(ثم تمثل الإمام عليه السلام بذلك الشعر الذي ينسب إلى امرؤ القيس، الذي قال فيه: دع عنك الحديث بشأن الغارات التي وقعت في الزمان الماضي، وحدثني عن غارات اليوم، حيث آلت فيه الخلافة الإسلامية إلى معاوية الذي أصبح الخطر العظيم)[2].

وهي إلفاتة من الإمام علينا أن نأخذ منها الدرس والعبرة، فنحن مطالبون أن نعيش اللحظة الراهنة، وما نواجهه من أخطار وتحديات،

(١) السيد محمد الشيرازي، توضيح نهج البلاغة، ج٢، ص٤٦٤.
(٢) الشيخ ناصر مكارم الشيرازي، نفحات الولاية، ج٦، ص٢٠٥.

لا أن نعيش الماضي بهمومه وصراعاته قبل أكثر من ألف وأربع مئة سنة.

وهذا لا ينافي أن تكون لنا نظرتنا للوقائع التاريخية الماضية، ففي هذه الوقائع تأسّست عقائدنا ورؤيتنا لكثير من القضايا والمواقف، ولكن ليس معنى ذلك أن نستغرق في طرح هذا الموضوع، ونوجّه إليه جميع طاقاتنا، غافلين عمّا تعيشه الأمة اليوم من تحديات ومخاطر تحدق بها من كل حدب وصوب.

وهنا يحضرني الاستشهاد برأي للمرجع السيد حسين البروجردي (١٢٩٢ - ١٣٨٠هـ) أحد أبرز مراجع الشيعة في هذا العصر، حيث ينقل عنه تلامذته أنه كان يرى أن يركّز الشيعة في كتاباتهم وخطابهم على توجيه الناس إلى مرجعية أهل البيت العلمية، وتوضيح مكانتهم وقدرهم، لا أن يثار موضوع الخلافة، وأحقيتهم في ذلك، لما قد يثيره هذا الطرح من حساسية لا تخدم الواقع المعاصر، كما أنها لا تغير شيئًا من واقع قد مضى، والمهم هو أن تستفيد الأمة الآن من تعاليم أهل البيت عليهم السلام ومدرستهم الأصيلة، بحيث يكونون هم المرجعية للأمة في المعارف الدينية[1].

(١) راجع كتاب: حياة الإمام البروجردي، للشيخ محمد واعظ زاده الخراساني، (المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية، ط١، ١٤٢١هـ، ص٩٦.

مراعاة المصلحة العامّة

حينما يكون هناك صراع بين جهتين في الأمة، فمن المفترض أن يكون هناك مراعاة للمصلحة العامّة للأمة والدين، وهذا ما نجده في سيرة أمير المؤمنين علي عليه السلام كمثال بارز، حيث لم ينازع على الخلافة، لأنه رأى أن ذلك يصطدم مع المصلحة العامّة للإسلام، مع أنه كان يرى نفسه صاحب الحق، وذلك لتجنيب الأمة خطر الاحتراب والانقسام في ذلك الظرف الحساس.

وهذا يدلّ على أن الإمام يأخذ المصلحة العامّة بعين الاعتبار، ولا يصح أبدًا أن يكون الخلاف ـ في نظره ـ على حساب مصلحة الدين والأمة.

وهناك كلمات كثيرة في نهج البلاغة، تتناول هذه النقطة التي تحتاج إلى دراسة وتأمل.

وخاصّة في مثل هذه الظروف التي تعانيها الأمة، وما نعيشه داخل كل توجّه من مزايدات مذهبية، وكأننا أحرص على المذهب من أئمة المذهب، بينما لو قرأنا كلام أمير المؤمنين عليه السلام وبقية الأئمة الطاهرين عليهم السلام لعرفنا الحدود التي ينبغي أن نتحرّك فيها.

وأنقل هنا نصًّا للإمام، يوضّح فيه رؤيته لمسألة الخلاف، يقول: «أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ بَعَثَ مُحَمَّداً صلى الله عليه وآله نَذِيراً لِلْعَالَمِينَ ومُهَيْمِناً عَلَى الْمُرْسَلِينَ، فَلَمَّا مَضَى تَنَازَعَ الْمُسْلِمُونَ الأَمْرَ مِنْ بَعْدِهِ، فَوَاللهِ مَا

كَانَ يُلْقَى فِي رُوعِي ولا يَخْطُرُ بِبَالِي أَنَّ الْعَرَبَ تُزْعِجُ هَذَا الأَمْرَ مِنْ بَعْدِهِ عَنْ أَهْلِ بَيْتِهِ، ولا أَنَّهُمْ مُنَحُّوهُ عَنِّي مِنْ بَعْدِهِ، فَمَا رَاعَنِي إِلا انْثِيَالُ النَّاسِ عَلَى فُلانٍ يُبَايِعُونَهُ، فَأَمْسَكْتُ يَدِي حَتَّى رَأَيْتُ رَاجِعَةَ النَّاسِ قَدْ رَجَعَتْ عَنِ الإِسْلامِ يَدْعُونَ إِلَى مَحْقِ دَيْنِ مُحَمَّدٍ، فَخَشِيتُ إِنْ لَمْ أَنْصُرِ الإِسْلامَ وأَهْلَهُ أَنْ أَرَى فِيهِ ثَلْماً أَوْ هَدْماً، تَكُونُ الْمُصِيبَةُ بِهِ عَلَيَّ أَعْظَمَ مِنْ فَوْتِ وِلايَتِكُمُ الَّتِي إِنَّمَا هِيَ مَتَاعُ أَيَّامٍ قَلائِلَ، يَزُولُ مِنْهَا مَا كَانَ كَمَا يَزُولُ السَّرَابُ، أَوْ كَمَا يَتَقَشَّعُ السَّحَابُ، فَنَهَضْتُ فِي تِلْكَ الأَحْدَاثِ حَتَّى زَاحَ الْبَاطِلُ وزَهَقَ، واطْمَأَنَّ الدِّينُ وتَنَهْنَهَ»[1].

الإمام في هذا النص يبيّن استغرابه لتنحيته عن موقعه الشرعي، ويبيّن أنه أمسك عن البيعة في البداية، لكنه لما رأى خطر الردّة على الإسلام، وضياع هيبة الأمة، بايع الخلفاء وساعدهم في مواجهة التحديات.

تصنيف المخالفين وفرزهم

من الممارسات الخطأ أن نصنف جميع المخالفين ونضعهم في سلّة واحدة، فالإنسان في تعامله مع الآخرين عليه أن يكون موضوعيًّا في تصنيف الناس من حوله، حتى المخالف والخصم منهم، وهذا ما انتهجه الإمام علي عليه السلام في تعامله مع خصومه.

(١) نهج البلاغة، من كتاب له عليه السلام إلى أهل مصر مع مالك الأشتر لما ولاه إمارتها، رسالة رقم ٦٢.

إن تعميم صورة نمطية على الأطراف الأخرى خطأ، فعندما نتحدّث عن الغرب ـ مثلاً ـ علينا ألاَّ نتحدث عنهم وكأنهم فكر واحد وطبيعة واحدة، بل علينا أن نفرّق بين الأمريكيين والإنجليز والفرنسيين والألمان وغيرهم من القوميات والثقافات، كما يجب علينا أن نبحث عن المعتدلين منهم في النظرة إلينا، فهناك في الغرب عقلاء ومعتدلون يناصروننا في كثير من قضايانا.

وينطبق هذا الأمر على اليهود، ليس كل اليهود مع الصهيونية، وضد حقوق الفلسطينيين، هناك جماعات منهم يناهضون قيام دولة إسرائيل، وهناك من يتعاطفون مع الحق الفلسطيني.

وفيما يخص الحالة المذهبية، فليس من المقبول أن ينظر السنة إلى الشيعة نظرة واحدة، من خلال مواقف بعض المتطرفين منهم، وكأنهم نسيج وفكر واحد.

كما أنه ليس من المقبول أن ينظر الشيعة إلى السنة نظرة واحدة، وكأنهم جميعًا تكفيريون ونواصب، لأن فئة منهم متطرفة متشددة، وكذلك الحال في النظر إلى المدارس داخل المذاهب، لا يصح النظر إليها نظرة واحدة، واتخاذ موقف واحد من جميع أفرادها، ففي كلّ مدرسة معتدلون، لذلك من المفترض بالباحث أن يفرز بين هذه التوجّهات والخطوط المتعدّدة، داخل كل تيار وطائفة.

وهذا ما نراه في بعض مواقف وكلمات أمير المؤمنين عليه السلام تجاه

مناوئيه، ومن ذلك ما يروى عنه عليه السلام في واقعة الجمل، ففي الوقت الذي يعد كل من طلحة والزبير جبهة واحدة ضده، كان يميز في أسلوب التعامل معهما، وعندما أنفذ عبد الله بن عباس إلى الزبير قبل وقوع الحرب قال له: «لا تَلْقَيَنَّ طَلْحَةَ، فَإِنَّكَ إِنْ تَلْقَهُ تَجِدْهُ كَالثَّوْرِ عَاقِصاً قَرْنَهُ، يَرْكَبُ الصَّعْبَ ويَقُولُ هُوَ الذَّلُولُ، ولَكِنِ الْقَ الزُّبَيْرَ، فَإِنَّهُ أَلْيَنُ عَرِيكَةً»[1].

وهذا درس لنا عندما نواجه أي جهة، حيث من المفترض أن ندرسها، حتى نتعرف على المعتدلين فيها، ومن يمكن الالتقاء معهم في بعض المواقف والآراء.

وفي كلمة له عليه السلام حول الخوارج، فرَّق بينهم وبين غيرهم، وأوصى بأن لا يُقاتل الخوارج من بعده، يقول عليه السلام: «لا تُقَاتِلُوا الْخَوَارِجَ بَعْدِي فَلَيْسَ مَنْ طَلَبَ الْحَقَّ فَأَخْطَأَهُ كَمَنْ طَلَبَ الْبَاطِلَ فَأَدْرَكَهُ»[2]، ويعلّق الشريف الرضي على ذلك بقوله: «يعني معاوية وأصحابه».

الحوار مع الآخر

عندما نقرأ نهج البلاغة، نجد أن عدد الرسائل التي بعثها الإمام علي عليه السلام إلى معاوية أربعة عشر رسالة، ولعل هناك رسائل غيرها في المصادر الأخرى.

(١) نهج البلاغة، ومن خطبة له عليه السلام في معنى قتل عثمان، خطبة رقم ٣٠.
(٢) المصدر نفسه، خطبة رقم ٦١.

كما نجد في مواضع عدّة من نهج البلاغة حوارات له عليه السلام مع الخوارج، ومع طلحة والزبير، وكذلك مراسلات لعمرو بن العاص وغيره من الخصوم.

وهذا يدل على أن الإمام يحاور من يخالفه أيًّا كان، بينما نجد بعض مظاهر الخلاف القائمة في مجتمعنا يرفض فيها المختلفون التلاقي والحوار، ويعتمدون سياسة الهجر والمقاطعة، والصراع والنزاع.

هذا الأسلوب ينمّ عن تخلف في الرؤية، والمسلك الأخلاقي، لأن الاختلاف لا ينبغي أن يؤدي إلى هذا المستوى من القطيعة، وهو خلاف التعاليم والآداب والمبادئ التي ورثناها عن أئمتنا، فها هو الإمام علي عليه السلام يحاور معاوية والخوارج، وجميع خصومه وأعدائه، وهو موقف يدل على قوة في الرأي والحجّة، يمتلكها من يتمسّك بمبدأ الحوار، وفي المقابل يدل موقف القطيعة ورفض الحوار، على ضعف في الحجة والرأي.

آداب وأخلاق الصراع

نكتفي في هذه النقطة بذكر موقفين للإمام، أولهما موقفه عليه السلام لما سمع بعض أصحابه يسبون أهل الشام، حيث قال لهم: «إِنِّي أَكْرَهُ لَكُمْ أَنْ تَكُونُوا سَبَّابِينَ، ولَكِنَّكُمْ لَوْ وَصَفْتُمْ أَعْمَالَهُمْ وذَكَرْتُمْ حَالَهُمْ كَانَ أَصْوَبَ فِي الْقَوْلِ وأَبْلَغَ فِي الْعُذْرِ، وقُلْتُمْ مَكَانَ سَبِّكُمْ إِيَّاهُمْ: اللَّهُمَّ احْقِنْ دِمَاءَنَا ودِمَاءَهُمْ، وأَصْلِحْ ذَاتَ بَيْنِنَا وبَيْنِهِمْ واهْدِهِمْ مِنْ

ضَلالَتِهِمْ، حَتَّى يَعْرِفَ الْحَقَّ مَنْ جَهِلَهُ، ويَرْعَوِيَ عَنِ الْغَيِّ والْعُدْوَانِ مَنْ لَهِجَ بِهِ»[1].

إنه لم يقبل من أفراد جيشه أن يواجهوا جيش معاوية بأسلوب الشتم والسبّ، حتى لو كان ذلك في حال معركة وصراع مسلّح.

والثاني: موقفه من أم المؤمنين عائشة عندما سئل عنها، فقال: «وأَمَّا فُلانَةُ [أي عائشة]، فَأَدْرَكَهَا رَأْيُ النِّسَاءِ [الحالة العاطفية الغالبة على النساء]، وضِغْنٌ غَلا فِي صَدْرِهَا كَمِرْجَلِ الْقَيْنِ، ولَوْ دُعِيَتْ لِتَنَالَ مِنْ غَيْرِي مَا أَتَتْ إِلَيَّ لَمْ تَفْعَلْ، ولَهَا بَعْدُ حُرْمَتُهَا الأولَى، والْحِسَابُ عَلَى اللهِ تَعَالَى»[2].

فالإمام بعد أن يتحدّث عن موقف عائشة، وما قامت به من دور في محاربته، فإنه بعد ذلك يقول: «ولَهَا بَعْدُ حُرْمَتُهَا الأولَى»، فهي من أزواج رسول الله ﷺ وأمهات المؤمنين، وما قامت به يحاسبها الله عليه يوم القيامة، أما في الدنيا فلها احترامها ومكانتها.

كما أن الإمام عليًّا عليه السلام زارها في منزلها بالبصرة، بعد انتهاء معركة الجمل، زيارة احترام، وأعادها إلى المدينة المنوّرة معزّزة مكرّمة.

ويجب أن يكون تعاملنا منسجمًا مع تعامل الإمام أمير المؤمنين

(١) نهج البلاغة، ومن كلام له عليه السلام وقد سمع قوما من أصحابه يسبون أهل الشام، خطبة رقم ٢٠٦.

(٢) المصدر نفسه، ومن كلام له عليه السلام خاطب به أهل البصرة على جهة اقتصاص الملاحم، خطبة رقم ١٥٦.

معها، فنخطّئ موقفها في حربها للإمام علي عليه السلام وندينه، لكن علينا أن نراعي حرمتها الأولى التي كانت لها كزوج لرسول الله صلى الله عليه وآله حسب ما ورد في كلام الإمام علي عليه السلام.

إن موضوع آداب وأخلاق الصراع في سيرة الإمام علي عليه السلام وكلماته واسع، وما أحوج ساحتنا الدينية والاجتماعية إلى بحث هذا الموضوع، والاستضاءة بفكر الإمام علي عليه السلام ونهجه، في إدارة ما قد نواجهه من صراعات ونزاعات، وخاصة في داخلنا الديني، حتى لا تسيطر على مواقفنا نزعة الانتقام والتشفي، وروح التعصب والانفعال، بعيدًا عن قيم الدين، ومنطق العقل، والأخلاق الإنسانية.

تحدي إغراءات المنصب

حين يحصل الإنسان على موقع أو منصب بارز في محيطه الاجتماعي، فإنه يكون أمام اختبار جديد وخطير، وذلك هو مقتضى شأن وجود الإنسان في هذه الحياة، فهي ساحة امتحان وابتلاء في كلّ حال من أحوالها، سواء كان حال قوة أو ضعف، حال خير أو شرّ، فالإنسان يمتحن بحال قوته، كما يمتحن بحال ضعفه، كيف يتصرف ويتعامل في كلا الحالين؟

يقول الله تعالى: ﴿وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[سورة الأعراف، الآية: ١٦٨].

ويقول تعالى ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾[سورة الأنبياء، الآية: ٣٥] .

امتحان ذو بعدين

حصول الإنسان على منصب اجتماعي مرموق، أو وظيفة رسمية بارزة، هو امتحان في بعدين:

البعد الأول: هل ينجح في إدارته لمنصبه وموقعه، أم يكون ضعيفًا فاشلًا؟، وهل يكون مخلصًا نزيهًا أم انتهازيًّا، يستخدم المنصب لمصالحه الخاصة، على حساب المصلحة العامة؟!

البعد الثاني: هل سيؤثر المنصب على نفسه وسلوكه، فيأخذه الغرور والكبر على من حوله، ويتغيّر تعامله، وتتبدّل أخلاقه مع المحيطين به، أم يبقى ملتزمًا بأخلاقه وسلوكه؟!

حينما يحصل الإنسان على منصب، يتولد لديه شعور بالنشوة والقوة والاعتزاز، خصوصًا عندما يكون الحصول على الموقع عزيزًا نادرًا!

وإذا لم يكن الإنسان يقظًا، فربما يتحول الزهو والشعور بالقوة إلى حالة من الغرور والتكبر، فتتغيّر أخلاقه على من حوله!!

وقد تصل الحال بالبعض إلى ترك زيارة أرحامه وأقاربه وأصدقائه، بحجة أنه أصبح مشغولًا، أو يتخلى عن صلاة الجماعة وارتياد مجالس الذكر بحجة التزاماته المتعددة!

وعلى الإنسان هنا أن يقرأ حقيقة مشاعره، حتى لا يخدع نفسه، فقد تنمو لديه مشاعر سلبية دون أن يتفطّن لها، ويبرر سلوكه بمختلف المبررات.

وقد يؤثر المنصب على أخلاق صاحبه، فيقلّ احترامه وتقديره للآخرين، ويتوقع أن يكون محطّ اهتمام وتبجيل الناس من حوله، فإذا قصّر أحد في إبداء التقدير له تأثر وأبدى انزعاجه!!

لهذا يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «الْوِلَايَاتُ مَضَامِيرُ الرِّجَالِ»[1].

مَضَامِيرُ: جمع مضمار، وهو موقع سباق الخيل، فالإمام يرى أنّ المواقع والمناصب تكشف تقدّم الإنسان في مضمار الأخلاق أو تأخره!

السمو الأخلاقي في سيرة الإمام علي عليه السلام

في يوم الغدير أعلن رسول الله صلى الله عليه وآله ولاية أمير المؤمنين عليه السلام، لكنّ الإمام لم يكن يرى أنّ هذه الولاية كسلطة زمنية تزيده شأنًا، أو تُشكِّل له إضافةً، لذلك حينما صرف عنه هذا الموقع إلى غيره، ما كانت المسألة ضخمة في نفسه، وليست مهمة إلّا بمقدار تحمّل المسؤولية الشرعية.

وقد عرض عليه منصب الخلافة بعد مقتل الخليفة الثاني، فقال له عبد الرحمن بن عوف: هل أنت مبايعي على كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وآله وفعل أبي بكر وعمر؟، فقال: «اللهم لا، ولكن على جهدي من ذلك

(١) نهج البلاغة، حكمة ٤٤١.

وطاقتي»[1].

فعرض الأمر على الخليفة عثمان فقبل.

وهكذا فوّت على نفسه الخلافة حين رفض القبول بالصيغة التي طرحها ابن عوف لما فيها من إضافة فعل أبي بكر وعمر إلى كتاب الله وسنة نبيه؛ لأنه يرى التزامه بالمبادئ أولى من تحصيل المواقع.

وعندما أتت إليه الخلافة، وبويع بعد تمنع منه، بقي على مبادئه، لم يغيّر من سلوكه وأخلاقه وتعامله مع الناس.

عن عَبْدُ اللهِ بْنُ عَبَّاسٍ، قال: دَخَلْتُ عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام بِذِي قَارٍ وهُوَ يَخْصِفُ نَعْلَه.

فَقَالَ لِي: مَا قِيمَةُ هَذَا النَّعْلِ؟

فَقُلْتُ: لَا قِيمَةَ لَهَا!

فَقَالَ عليه السلام: «واللهِ، لَهِيَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ إِمْرَتِكُمْ، إِلَّا أَنْ أُقِيمَ حَقّاً أَوْ أَدْفَعَ بَاطِلًا»[2].

وفي كلمة أخرى له عليه السلام: «أَمَا وَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ وَبَرَأَ النَّسَمَةَ لَوْلَا حُضُورُ الْحَاضِرِ وَقِيَامُ الْحُجَّةِ بِوُجُودِ النَّاصِرِ وَمَا أَخَذَ اللَّهُ عَلى الْعُلَمَاءِ أَلَّا يُقَارُّوا عَلَى كِظَّةِ ظَالِمٍ وَلَا سَغَبِ مَظْلُومٍ لَأَلْقَيْتُ حَبْلَهَا عَلَى غَارِبِهَا

(١) الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج١١، ص٢٧٧. ومثله في تاريخ اليعقوبي، ج٢، ص١٦٢.
(٢) نهج البلاغة، خطبة ٣٣.

وَلَسَقَيْتُ آخِرَهَا بِكَأْسِ أَوَّلِهَا وَلَأَلْفَيْتُمْ دُنْيَاكُمْ هَذِهِ أَزْهَدَ عِنْدِي مِنْ عَفْطَةِ عَنْزٍ»[1].

ومن كتاب له عليه السلام إلى أمرائه على الجيوش، يذكر فيه رؤيته لما يجب أن تكون عليه نفسية وأخلاق صاحب السلطة والمنصب، يقول عليه السلام: «أمّا بَعدُ، فَإِنَّ حَقًّا عَلَى الوالي أَلّا يُغَيِّرَهُ عَلى رَعِيَّتِهِ فَضلٌ نالَهُ، ولا طَولٌ خُصَّ بِهِ، وأن يَزيدَهُ ما قَسَمَ اللهُ لَهُ مِن نِعَمِهِ دُنُوّا مِن عِبادِهِ، وعَطفًا عَلى إخوانِهِ»[2].

فإذا حصل الإنسان على موقع أو منصب يدنو من عباد الله، لا أن يبتعد عنهم، بحجة الانشغال أو التشاغل، ويزيد عطفه واهتمامه بإخوانه، فالمنصب نعمة من الله تحتاج إلى شكر، وشكرها أن يزداد دنوًّا من الناس وتواضعًا لهم.

وهذا ما كان عليه الإمام في خلافته، عن زاذان قال: رَأَيتُ عَلِيَّ بنَ أبي طالِبٍ عليه السلام يُمسِكُ الشُّسوعَ بِيَدِهِ، يَمُرُّ فِي الأَسواقِ، فَيُناوِلُ الرَّجُلَ الشِّسعَ، ويُرشِدُ الضّالَّ، ويُعينُ الحَمّالَ عَلَى الحَمولَةِ وهُوَ يَقرَأُ هذِهِ الآيَةَ: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْأَخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾، ثُمَّ يَقولُ: هذِهِ الآيَةُ أنزِلَت فِي الوُلاةِ وذَوِي القُدرَةِ مِنَ النّاسِ[3].

(١) نهج البلاغة، الخطبة ٣.
(٢) المصدر نفسه، الكتاب ٥٠.
(٣) فضائل الصحابة لابن حنبل، ج٢، ص٦٢١، حديث١٠٦٤.

(الشُّسوعَ): جمع شسع وهو ما يكون وسط النعل.

فكان الإمام علي عليه السلام يمشي في الطريق ولديه كمية من الشسوع، يقدمها لمن يحتاج إلى إصلاح نعله، ويرشد الضالّ، ويعين الحَمّالَ، وهو أمير المؤمنين والخليفة!

وقال أحدهم: رَأَيتُ عَلِيَّ بنَ أبي طالِبٍ اشتَرى تَمراً بِدِرهَمٍ، فَحَمَلَهُ في مِلحَفَتِهِ.

فَقالوا: نَحمِلُ عَنكَ يا أميرَ المُؤمِنينَ؟

قالَ: لا، أَبُو العِيالِ أحَقُّ أن يَحمِلَ[1].

وعن الإمام الباقر عليه السلام: «وَاللهِ، إنْ كانَ عَلِيٌّ عليه السلام لَيَأكُلُ أكلَ العَبدِ، ويَجلِسُ جِلسَةَ العَبدِ، وإن كانَ لَيَشتَرِي القَميصَينِ السُّنبُلانِيَّينِ فَيُخَيِّرُ غُلامَهُ خَيرَهُما، ثُمَّ يَلبَسُ الآخَرَ، فَإذا جاز أصابِعَهُ قَطَعَهُ، وإذا جازَ كَعبَهُ حَذَفَهُ، ولَقَد وَلِيَ خَمسَ سِنينَ ما وَضَعَ آجُرَّةً عَلى آجُرَّةٍ، ولا لَبِنَةً عَلى لَبِنَةٍ، ولا أقطَعَ قَطيعًا، ولا أورَثَ بَيضاءَ ولا حَمراءَ، وإن كانَ لَيُطعِمُ النّاسَ خُبزَ البُرِّ وَاللَّحمِ، ويَنصَرِفُ إلى مَنزِلِهِ ويَأكُلُ خُبزَ الشَّعيرِ وَالزَّيتِ وَالخَلِّ، وما وَرَدَ عَلَيهِ أمرانِ كِلاهُما لِلهِ رِضىً إلّا أخَذَ بِأَشَدِّهِما عَلى بَدَنِهِ»[2].

وتنقل عدة روايات أنّ عليًّا عليه السلام في وقت خلافته في الكوفة كان

(١) فضائل الصحابة لابن حنبل، مصدر سابق.
(٢) الشيخ الصدوق، الأمالي، ص٣٥٦، حديث٤٣٧.

يتعمّد ألّا يشتري حاجاته ممن يعرفه.

رُوِيَ عَن مَولىً لِبَنِي الأَشتَرِ النَّخَعِيِّ قالَ: رَأَيتُ أميرَ المُؤمِنينَ عَلِيًّا عليه السلام وأَنَا غُلامٌ وقد أَتَى السّوقَ بِالكوفَةِ، فَقالَ لِبَعضِ باعَةِ الثِّيابِ: أَتَعرِفُني؟ قالَ: نَعَم، أنتَ أميرُ المُؤمِنينَ، فَتَجاوَزَهُ. وسَأَلَ آخَرَ، فَأَجابَ بِمِثلِ ذلِكَ، إلى أن سَأَلَ واحِدًا فَقالَ: ما أعرِفُكَ، فَاشتَرى مِنهُ قَمِيْصًا، فَلَبِسَهُ، ثُمَّ قالَ: الحَمدُ للهِ الَّذي كَسا عَلِيَّ بنَ أبي طالِبٍ. وإنَّمَا ابتاعَ عليه السلام ممّن لا يَعرِفُهُ خَوفًا مِنَ المُحاباةِ في إرخاصِ مَا ابتاعَهُ»[1].

وهكذا نجد مشاهد كثيرة سجلتها كتب التاريخ عن سيرة أمير المؤمنين عليه السلام تؤكد المبدأ الذي تحدث عنه، أنه إذا حصل الإنسان على موقع بارز في محيطه الاجتماعي، عليه ألّا يسمح لمشاعر الغرور والتكبر أن تعشش في نفسه، وألّا تتغيّر أخلاقه وتعامله مع من حوله، بل عليه أن يكون حذرًا يقظًا، وأن يجعل شكره لله على هذه النعمة هو التواضع للناس والدنو منهم.

ذات مرة حدثت مشكلة بين زوج وزوجته، وكان الزوج أستاذًا جامعيًّا، ويشكو من أن زوجته لا تعطيه التقدير اللائق بأستاذ جامعي!!

البعض من الناس يتأثر سلبًا بموقعه الوظيفي، ويتعامل مع عائلته وجيرانه وأصدقائه باستعلاء، وهذا خطأ كبير.

علينا أن نستلهم من سيرة الإمام علي عليه السلام هذه الروح والأخلاق العظيمة.

(١) خصائص الأئمّة عليهم السلام، ص٨٠.

ورد في بالدعاء عن الإمام زين العابدين عليه السلام وهو يعبّر عن التطلع لهذا السمو الأخلاقي: «اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّد وَآلِهِ، وَلا تَرْفَعْنِي فِيْ النَّاسِ دَرَجَةً إلاّ حَطَطْتَنِي عِنْدَ نَفْسِي مِثْلَهَا، وَلا تُحْدِثْ لِي عِزًّا ظَاهِراً إلّا أَحْدَثْتَ لِي ذِلَّةً بَاطِنَةً عِنْدَ نَفْسِي بِقَدَرِهَا»(١).

التواضع في سيرة الإمام علي

حينما ينعم الله تعالى على الإنسان بمكانة من العلم أو المال أو المنصب أو الجاه، فإن عليه تجاه هذه النعمة أن يشكر الله سبحانه وتعالى، ومن أجلى مظاهر شكر الله على النعمة التي منحها للإنسان، هي أن يتواضع للآخرين قربة إلى الله تعالى.

إن الإنسان حينما يكون واثقًا من نفسه، وعارفًا لقدره، فإنه يتواضع للآخرين، فالرفعة الحقيقية تنعكس تواضعًا بين الناس. أما الإنسان الذي يشعر من نفسه الضعف والهوان، فإنه يريد أن يعوّض ما يشعر به، بالتظاهر بحالة من الرفعة بين الناس، ورد عن أمير المؤمنين علي عليه السلام أنه قال: «مَا تَوَاضَعَ إِلَّا رَفِيعٌ، مَا تَكَبَّرَ إِلاَّ وَضِيعٌ»(٢)، الإنسان الرفيع في مشاعره وأحاسيسه، يتعامل مع الناس بتواضع، فلا يتعالى ولا يتكبر. بينما الإنسان الخاوي الفارغ من داخله، يحاول أن يصطنع له مكانة بالتعالي والترفع على الناس.

---

(١) الصحيفة السجادية، دعاء رقم (٢٠)، ص٩٢، وكان من دعائه عليه السلام في مكارِمِ الاخلاقِ ومرضِيِّ الافعالِ.

(٢) عيون الحكم والمواعظ، ص٤٧٥.

ونستفيد هذا الدرس من الطبيعة، حيث نرى غصن الشجر الذي لا ثمرة فيه متعاليًا، أما غصن الشجر المليء والمثقل بالثمار فنرى انحناءه وتدليه.

وهكذا هو الإنسان، إذا كان مليئًا بالثمار، وبنقاط القوة، وهو واعٍ بتلك الحالة، فإنه يكون كالغصن المتدلي، بحيث إذا ملك شيئًا يبذله للناس ويقترب منهم.

ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام: «عَلَيْكَ بِالتَّوَاضُعِ فَإِنَّهُ مِنْ أَعْظَمِ اَلْعِبَادَةِ»[1].

والتواضع ليس مفهومًا فضفاضًا، ولا فكرة خيالية، إنما هو سلوك وطبع يتطبع به الإنسان في تعامله مع الآخرين، فيتواضع في تعامله مع زوجته ومع الوالدين والأبناء.

يتجلّى التواضع أكثر في التعامل مع من هو دونك في المكانة، وأقلّ منك علمًا ومالًا وقدرة.

وهل من الفخر التواضع أمام زعيم من الزعماء وتبجيله واحترامه؟ إن ذلك قد يكون مفروضًا على الإنسان، بحكم المعادلات الاجتماعية، إنما الفضل والتواضع الحقيقي هو الاحترام للفقير والضعيف، ومن يعمل تحت إشرافك.

(١) بحار الأنوار، ج٧٢، ص١١٩.

مشاهد وتجليات

لِنرَ كيف يتجلّى التواضع في سيرة أمير المؤمنين عليه السلام عبر الأمثلة التالية:

١. تواضع أمير المؤمنين عليه السلام وتعامله مع خادمه قنبر الذي كان يحترمه، حتى إنه يذهب معه إلى السوق، فيشتري ثوبين، فيعطي قنبر الثوب الأغلى، ويقول له: أنت شاب ولك شره الشباب، فخذ هذا الثوب، ويأخذ هو الثوب الأقل قيمة.

٢. حين كان في موقع الخلافة والحكم، ومع ما يتمتع به من كمالات وخصائص، لكنه لم يتعامل على أساس التعالي، بل كان يرفض من الناس أن يتعاملوا معه على هذا الأساس، وقال لهم: «فَلَا تُكَلِّمُونِي بِمَا تُكَلَّمُ بِهِ الْجَبَابِرَةُ، وَلَا تَتَحَفَّظُوا مِنِّي بِمَا يُتَحَفَّظُ بِهِ عِنْدَ أَهْلِ الْبَادِرَةِ، وَلَا تُخَالِطُونِي بِالْمُصَانَعَةِ، وَلَا تَظُنُّوا بِي اسْتِثْقَالًا فِي حَقٍّ قِيلَ لِي وَلَا الْتِمَاسَ إِعْظَامٍ لِنَفْسِي، فَإِنَّهُ مَنِ اسْتَثْقَلَ الْحَقَّ أَنْ يُقَالَ لَهُ أَوِ الْعَدْلَ أَنْ يُعْرَضَ عَلَيْهِ، كَانَ الْعَمَلُ بِهِمَا أَثْقَلَ عَلَيْهِ، فَلَا تَكُفُّوا عَنْ مَقَالَةٍ بِحَقٍّ أَوْ مَشُورَةٍ بِعَدْلٍ»[1].

٣. عندما عاد من صفين، ومرّ بالأنبار، استقبله جماعة ومعهم دهاقينهم، فلما استقبلوه نزلوا، وجاؤوا يشتدون معه،

(١) نهج البلاغة، خطبة ٢١٦، ومن خطبة له عليه السلام خطبها بصفين.

ويسيرون أمامه وخلفه، تعظيمًا له، فالتفت إليهم أمير المؤمنين قائلًا: ماذا تصنعون؟

قالوا: هذا خلق نعظّم به الأمراء، فرفض أمير المؤمنين هذه الطريقة، وقال: «أَمَّا هَذَا اَلَّذِي زَعَمْتُمْ أَنَّهُ مِنْكُمْ خُلُقٌ تُعَظِّمُونَ بِهِ اَلْأُمَرَاءَ فَوَ اَللَّهِ مَا يَنْتَفِعُ بِهَذَا اَلْأُمَرَاءُ وَإِنَّكُمْ لَتَشُقُّونَ بِهِ عَلَى أَنْفُسِكُمْ وَأَبْدَانِكُمْ فَلاَ تَعُودُوا لَهُ»[1].

٤. عن الإمام الحسن العسكري عليه السلام: وَرَدَ عَلى أميرِ المُؤمِنينَ عليه السلام أخَوانِ لَهُ مُؤمِنانِ أبٌ وَابنٌ، فَقامَ إلَيهِما، وأكرَمَهُما، وأجلَسَهُما في صَدرِ مَجلِسِهِ، وجَلَسَ بَينَ أيديهِما، ثُمَّ أمَرَ بِطَعامٍ فأحضِرَ، فَأَكَلا مِنهُ، ثُمَّ جاءَ قَنبَرٌ بِطَستٍ وإبريقِ خَشَبٍ ومِنديلٍ لِيَبسَ، وجاءَ لِيَصُبَّ عَلى يَدِ الرَّجُلِ ماءً، فَوَثَبَ أميرُ المُؤمِنينَ عليه السلام فَأَخَذَ الإبريقَ لِيَصُبَّ عَلى يَدِ الرَّجُلِ!

فَتَمَرَّغَ الرَّجُلُ وقالَ: يا أميرَ المُؤمِنينَ، اللهُ يَراني وأنتَ تَصُبُّ عَلى يَدي؟!

قالَ: اُقعُد وَاغسِل يَدَكَ؛ فَإِنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ يَراكَ وأخوكَ الَّذي لا يَتَمَيَّزُ مِنكَ، ولا يَتَفَضَّلُ عَلَيكَ يَخدُمُكَ، يُريدُ بِذلِكَ خِدمَةً فِي الجَنَّةِ، أقسَمتُ عَلَيكَ بِعَظيمِ حَقِّي، لَمّا غَسَلتَ يَدَكَ مُطمَئِنًّا كَما كُنتَ تَغسِلُ لَو كانَ الصّابُّ عَلَيكَ قَنبَرًا، فَفَعَلَ

(١) بحار الأنوار، ج١٠٠، ص٥٥.

الرَّجُلُ ذلِكَ. فَلَمّا فَرَغَ ناوَلَ الإبريقَ مُحَمَّدَ بنَ الحَنَفِيَّةِ وقالَ: يا بُنَيَّ، لَو كانَ هذَا الإبنُ حَضَرَني دونَ أبيهِ لَصَبَبتُ عَلى يَدِهِ، ولكِنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ يَأبى أن يُسَوِّيَ بَينَ ابنٍ وأبيهِ إذا جَمَعَهُما مَكانٌ، لكِن قَد صَبَّ الأَبُ عَلَى الأَبِ، فَلْيَصُبَّ الإبنُ عَلَى الإبنِ، فَصَبَّ مُحَمَّدُ ابنُ الحَنَفِيَّةِ عَلَى الإبنِ»[1].

٥. كان متواضعًا في داره، يخدم في البيت مع عياله، وكان يخرج إلى الشارع في وضع عادي دون أبّهة، ودون موكب، كعادة ما يصاحب الزعماء أو الحكام.

وقد ورد «أَنَّهُ عليه السلام كَانَ يَمْشِي فِي خَمْسِ مَوَاطِنَ حَافِياً، وَيُعَلِّقُ نَعْلَيْهِ بِيَدِهِ اَلْيُسْرَى، وَكَانَ يَقُولُ: إِنَّهَا مَوَاطِنُ لله، فَأُحِبُّ أَنْ أَكُونَ فِيهَا حَافِياً، يَوْمُ اَلْفِطْرِ، وَيَوْمُ اَلنَّحْرِ، وَيَوْمُ اَلْجُمُعَةِ وَإِذَا عَادَ مَرِيضاً، وَإِذَا شَهِدَ جَنَازَةً»[2].

إن من يتوالى عليًّا ويحبّه، عليه أن يقتفي أثره في التواضع والتسامح مع الناس، القريبين والبعيدين، فإن ذلك هو سبب العلو والرفعة.

(١) الشيخ الطبرسي: الاحتجاج: ج٢، ص٥١٨، حديث٣٤٠.
(٢) بحار الأنوار، ج٨٧، ص٣٧٤.

روح المبادرة

من أهم ميزات شخصية الإمام علي عليه السلام ومعالم سيرته هي المبادرة، حيث كان يبادر لتحمّل المسؤولية، لم يكن ينتظر أن يسبقه أحدٌ في أيِّ شأنٍ من شؤون الخير وخدمة الدين والمجتمع، نجدُ هذه الظاهرة في سيرة علي عليه السلام منذ صغره وحداثة سنه.

حديث الإنذار

حينما دعا الرسول صلى الله عليه وآله عشيرته الأقربين، بعد نزول قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ ليعرض عليهم دعوته، ويطلب منهم العون وكانوا أربعين رجلاً، قال لهم صلى الله عليه وآله: أَيُّكُم يُؤازِرُني عَلى هذَا الأَمرِ عَلى أن يَكونَ أخي ووَصِيّي وخَليفَتي فيكُم؟

قالَ علي عليه السلام: فَأَحجَمَ القَومُ عَنها جَميعا، وقُلتُ: أَنَا

يا نَبِيَّ اللّـه، أكونُ وزيرَكَ عَلَيهِ، فَأَخَذَ بِرَقَبَتي، ثُمَّ قالَ: إنَّ هذا أخي ووَصِيّي وخَليفَتي فيكُم، فَاسمَعوا لَهُ وأطيعوا[1].

كان الإمام عليه السلام في العاشرة أو الحادية عشرة من عمره، لكنّه كان يتسم بصفة المبادرة.

قصة الخندق

وفي واقعة الخندق خَرَجَ عَمرُو بنُ عَبدِ وَدٍّ فَنادى: مَن يُبارِزُ؟

فَقامَ عَلِيٌّ وهُوَ مُقَنَّعٌ فِي الحَديدِ فَقالَ: أنَا لَها يا نَبِيَّ الله.

فَقالَ: إنَّهُ عمَرٌو، اِجلِس.

ونادى عَمرٌو: ألا رَجلٌ! وهُوَ يُؤَنِّبُهُم ويَقولُ: أينَ جَنَّتُكُمُ الَّتي تَزعُمونَ أنَّهُ مَن قُتِلَ مِنكُم دَخَلَها؟ أفَلا يَبرُزُ إلَيَّ رَجُلٌ؟!

فَقامَ عَلِيٌّ فَقالَ: أنَا يا رَسولَ الله.

فَقالَ: اِجلِس.

ثُمَّ نادَى الثّالِثَةَ وذَكَرَ شِعراً.

فَقامَ عَلِيٌّ فَقالَ: يا رَسولَ اللّـهِ، أنا.

فَقالَ: إنَّهُ عَمرٌو!

قالَ: وإن كانَ عَمرٌو! فَأَذِنَ لَهُ رَسولُ الله.

(١) محمد بن جرير الطبرى. تاريخ الطبري، ج٢، الطبعة الخامسة ١٤٠٩هـ، (بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات)، ص٦٣.

وبرز علي إلى ساحة المعركة، وهنا قال رسول الله ﷺ: «بَرَزَ الإِيمانُ كُلُّهُ إِلَى الشِّركِ كُلِّهِ»[1]، وتمكن الإمام من قتل عمرو بن عبد ودّ، وتحقيق النصر الحاسم للمسلمين.

المبادرة الاجتماعية

كان هو المبادر لأيِّ مُشكِلة أو قضية اجتماعية، يبادر بالتصدي لها ولا يتهرّب من المسؤولية، ولا يطلُب من الآخرين أو ينتظرهم أن يقوموا بتلك المسؤولية وإنّما هو يُبادِر لها.

وفي أيام خلافته كان يخرج إلى الأسواق، ويعيش بين الناس، يبحث عن المشاكل حتى يتصدى لحلّها، ولا ينتظر أن تعرض عليه المشكلة.

روي أنّ سَعيدَ بنَ القَيسِ الهَمدانِيَّ رَأى عَلِيًّا عليه السلام يَوما في شِدَّةِ الحَرِّ في فِناءِ حائِطٍ، فَقالَ: يا أميرَ المُؤمِنينَ! بِهذِهِ السّاعَةِ؟

أي في هذا الحرّ الشديد وقت الظهر؟!

قالَ: ما خَرَجتُ إلّا لأعينَ مَظلوماً أو أغيثَ مَلهوفًا.

حينما يرى أيّ مشكلة يتصدى لحلّها، وإن كانت صغيرة قد يترفع بعض الناس عن الدخول فيها، لكنه لا يحقر من فعل الخير شيئاً قولاً وعملاً.

---

(١) شرح نهج البلاغة، ج١٩ ص٦١ .

مواقف ونماذج

١. روي أنّ قصّاباً كان يبيع اللحم لجارية، وكان يحيف عليها، فبكت وخرجت، فرأت عليًّا عليه السلام فشكته إليه، فمشى معها نحوه، ودعاه إلى الإنصاف في حقّها.

ووعظه بقوله: ينبغي أن يكون الضعيف عندك بمنزلة القوي، فلا تظلم الجارية[١].

٢. وروي أنّ أمير المؤمنين عليه السلام مرّ بأصحاب التمر فإذا جارية تبكي،

فقال: يا جارية ما يبكيك؟ قالت: بعثني مولاي بدرهم فابتعت من هذا تمراً فأتيتهم به، فلم يرضوه، فلمّا أتيته به أبى أن يقبله!

قال: يا عبدالله، إنّها خادم وليس لها أمر فأردد إليها درهمها وخذ التمر، فقام إليه الرجل فلكزه، (أي دفعه)!!

فقال الناس: هذا أمير المؤمنين، فاهتزّ الرجل واصفرّ، وأخذ التمر وردّ إليها درهمها، ثمّ قال يا أمير المؤمنين: اِرْضَ عنّي.

فقال عليه السلام: ما أرضاني عنك إن أصلحت أمرك، ووفيت الناس حقوقهم[٢].

(١) بحار الأنوار، ج٤١، ص٢٠٣.
(٢) المصدر نفسه، ج٤١، ص٤٨.

٣. وعن الإمام الباقر عليه السلام قال: رجع عليٌّ عليه السلام إلى داره في وقت القيظ، فإذا امرأة قائمة تقول: إنّ زوجي ظلمني وأخافني وتعدّى عليَّ وحلف ليضربني.

فقال عليه السلام: يا أمّة الله، اصبري حتّى يبرد النهار ثمّ أذهب معك إن شاء الله، فقالت: يشتدّ غضبه وحرده عليّ.

فطأطأ رأسه ثمّ رفعه وهو يقول: لا والله أو يؤخذ للمظلوم حقّه غير متعتع، أين منزلك؟ فمضى إلى بابه (فوقف) فقال: السلام عليكم، فخرج شاب، فقال علي عليه السلام: يا عبدالله، اتّق الله فإنّك قد أخفتها وأخرجتها.

فقال الفتى: وما أنت وذاك والله لأحرقها لكلامك!

فقال أمير المؤمنين عليه السلام: آمرك بالمعروف وأنهاك عن المنكر. تستقبلني بالمنكر وتنكر المعروف، فأقبل الناس من الطرق ويقولون: سلام عليكم يا أمير المؤمنين، فأسقط الرجل في يديه.

فقال: يا أمير المؤمنين أقلني عثرتي، فوالله لأكون لها أرضاً تطأني.

فأغمد عليٌّ عليه السلام سيفه وقال: يا أمة الله، أُدخلي منزلك ولا تُلجئي زوجك إلى مثل هذا وشبهه[1].

(١) بحار الأنوار، ج٤١، ص٥٧.

والروايات كثيرة في هذا السّياق، مضمونها تأكيد هذه الظاهرة في حياة علي، وأنهُ كان يتصدى لحلّ مشاكِل الناس وقضاء حاجاتهم.

هذا هو الدرس المُهم الذي يجب أن نأخذه من هذه السيرة العطرة، أن يُبادر كلّ مؤمن للتصدي لحاجات أبناء مجتمعه وخدمتهم، خاصة في هذا العصر، فقد فرضت تطورات الحياة على الناس تحدّيات كثيرة، هناك مشاكل نفسية تنتشر، وضغوط اقتصاديه يعاني منها كثير من الناس، إضافة إلى وجود الخلافات والنزاعات العائلية والاجتماعية.

هناك حاجات تربوية ودينية، من يتصدّى لهذه التحديات ويواجه هذه المشكلات؟!

لا بُدّ وأن تنبري في المجتمع فئة خيرة يعتمد عليها وتسدُّ هذه الفراغات.

المؤسسات الاجتماعية الخيرية

تكونت في مجتمعنا مؤسسات متعددة، هناك جمعيات خيرية في كلّ مدينة وقرية، وأندية رياضية تستوعب الشباب، وتتيح لهم المجال لتصريف طاقاتهم، واستثمار أوقات فراغهم فيما ينفعهم ويبعدهم عن السلبيات والمضار. وهناك لجانٌ اجتماعية ودينية وثقافية، ونحن نفخر بأنّ مجتمعنا فيه مثل هذه المؤسسات، التي تتوفر على الإمكانات المالية، حيث تتوفر درجة من البذل والعطاء، صحيحٌ أننا نريد رفع هذا المستوى ونطالب بعطاءٍ أكبر، لكن لم تعُد المشكلة في مدى تجاوب

الناس، أو في إتاحة الفرصة لعمل هذه المؤسسات،

بل تكمن المشكلة في توفر العنصر البشري الذي يتصدّى للإدارة.

تقوم الجمعيات والأندية بدور كبير في مجتمعنا، لكنها تواجه تحدّيًا مهمًّا، وهو التصدي للإدارة، فالإقبال على مجالس الإدارة والترشح لتحمّل الأدوار القيادية ضعيف، وفي بعض الجمعيات والأندية يحين موعد انعقاد الجمعية العمومية ولم يتقدم عدد كافٍ للترشح لإدارتها!!.. لماذا هذا العزوف؟!

يوجد إقبال عام وتجاوب في جانب الدعم المالي، أو التعاون مع بعض الأنشطة، وهو أمر حسن، لكن المطلوب هو التصدّي للإدارة وقيادة هذه المؤسسات.

يتساءل الإنسان: أين كفاءات المجتمع وطاقاته؟!

الإدارة في كلّ مؤسسة هي الركن الأساس، فإذا كانت ذات مستوى عالٍ من الكفاءة والجدية، فإنها تستطيع الارتقاء بمستوى المؤسسة وتطويرها.

يفترض أن يتصدّى ذوو الكفاءة والمكانة الاجتماعية، لكنّ الشخصيات الاجتماعية ـ في الغالب ـ لا تتصدّى!

إما لأنها ترى نفسها أكبر من هذه الأدوار، أو ترى أن الآخرين أولى بالقيام بهذه المهام، أو لعدم الرغبة في مواجهة المشاكل المترتبة على

الإدارة من آمال وتوقعات الجمهور، لكن هذه المشكلات لا توازي الأجر العظيم والثواب الجزيل من قبل الله تعالى، وكذلك النتائج التي تعود على المجتمع من خلال هذه المؤسسات، وهنا يأتي قول عليٍّ عليه السلام: «افْعَلُوا الْخَيْرَ وَلاَ تَحْقِرُوا مِنْهُ شَيْئاً، فَإِنَّ صَغِيرَهُ كَبِيرٌ وَقَلِيلَهُ كَثِيرٌ، وَلا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ: إِنَّ أَحَداً أَوْلَى بِفِعْلِ الْخَيْرِ مِنِّي فَيَكُونَ وَاللهِ كَذلِكَ، إِنَّ لِلْخَيْرِ وَالشَّرِّ أَهْلاً، فَمَهْمَا تَرَكْتُمُوهُ مِنْهُمَا كَفَاكُمُوهُ أَهْلُهُ»[1].

إننا لا نستهين بأيِّ طاقة من الطاقات، فكلّ من يتصدّى للإدارة يستحق التقدير والثناء، لكن كلّما كان المتصدي أكثر كفاءة، وأكثر نفوذاً، استطاع أن يخدم المؤسسة وأن يرتقي بها أكثر.

البعض يتعذر بانشغالاته الكثيرة، لكنّ الجهد المبذول في العمل التطوعي هو زكاة الوقت، ويصب في مصلحة المجتمع.

إنّ من أهم الدروس التي يجب أن نستوحيها من سيرة أمير المؤمنين عليِّ بن أبي طالب عليه السلام هو أن نرفع في أنفسنا درجة الاستعداد والتصدي لإدارة المؤسسات والأنشطة الاجتماعية، فهي تمثل مكاسب كبيرة لمجتمعنا وبلدنا، فلا ينبغي أن نفرّط فيها، ولا يجوز أن نخسرها، وأن نتركها تعاني من هذه المشكلات الإدارية والقيادية.

(١) نهج البلاغة، حكمة ٤٢٢.